من عيون النقد العربى

بقلم
الأستاذ الدكتور
على البدرى
عميد كلية اللغة العربية بالقاهرة
ورئيس قسم البلاغة والنقد
والمشرف على قسم الصحافة والإعلام
وعميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنات بالمنصورة

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم المرسلين وأشرف النبيين ورحمة الله للناس أجمعين وعلى آله وصحبه والمهتدين بهديه إلى يوم الدين .

وبعد

فقد وصل النقد العربى فى القرن الرابع إلى أوْجه ، فصار خصبا، متّسع الآفاق ، معتمدا على الذوق الأدبى السليم ، مؤتنسا بمناحى العلم فى الصورة والشكل لا فى الجوهر والروح ؛ إن حلل فبذوق سليم ، وإن علل فبمنطق سديد ، وإن عرض لفكرة أتى على كل ما فيها (١) .

واختفى - أو كاد - تبعا لذلك ، أو نتيجة له ، من حَلْبته اللّغويون والنحاةُ ، وحمل رايتَه الأدباء الذين يتميّز نقدُهم باستقصاء البحث، وشُمول الفكرة ، وتوضيح العلل ، والموازنة العامة بين الشعراء ، وعُنُوا بدراسة الشعر وتقدير رجاله ، وتخاصموا فيهم ؛ فهذا ينتصر لأبى تمام ، وذاك يتشيّع للبحترى ، وهؤلاء يرفعون من مقدار المتنبى وينسبون إليه كل فضيلة فى الشعر ، وأولئك ينتقصون منه ويَرْمونه بالتعقيد والمعاظلة والالتواء ؛ وعمرت بأحاديثهم مجالس الأدب ؛ وسارت مقالاتهم وكتبهم فى كل صقع وواد .

من هؤلاء أبو الفرج الأصفهانى ، وابن العَمِيد ، والصاحب بن

---

(١) تاريخ النقد الأدبى للأستاذ طه أحمد إبراهيم ص ١٤٧ .

عَبّاد ، وأبو على الحاتمى ، وأبو الحسن بن لُنْكَكَ البصرى ، والآمدى، والجُرجانىّ ... إلا أن أبا الحسن الجرجانىّ كان أصْرَحَهُم نقدا ، وأوسعهم أُفقا ، وأشملهم بحثا .

فقد ظهر المتنبى فملأ الدنيا وشَغل الناس ، كما يقول ابن رشيق، واختصم الأدباء فى شعره ، وقطعوا الأزمان المتواصلة فى تحديد أغراضه ؛ وتعصّب له فريق ، وغضّ من شأنه فريق ، وكان من الذين غضّوا من شعره الصاحب بن عباد ، وألّف فيه رسالة سمّاها : " الكشف عن مساوئ المتنبى " أقامها على التنقص منه ، والحطّ من مقداره .

وقد ذكر الرواة أن الصاحب كان هيّن المكانة حين وفد المتنبى على ابن العميد ، وكان يودّ لو قصده أبو الطيب ؛ فلما تجاهله جزع وسخط ، وألّف فيه هذه الرسالة ؛ وذكر فيها من شعر المتنبى أمثلة للغموض والتعقيد والركاكة وقبح الألفاظ واستكراهها.

وكان أبو الفتح عثمان بن جنى من ناحية أخرى يرفع من مقداره؛ ويشيد من ذكره ؛ وأصبح لكل منهما أشياع .

كتاب الوساطة :

فى هذه الحلبة وذاك المعترك ألّف القاضى على بن عبد العزيز كتاب " الوساطة " .

قال الثعالبى فى اليتيمة :

" ولما عمل الصاحب رسالته المعروفة فى إظهار " مساوئ المتنبى " عمل القاضى أبو الحسن كتابه " الوساطة بين المتنبى وخصومه فى شعره " ؛ فأحسن وأبدع ، وأطال وأطاب ، وأصاب

شاكلة الصواب ، واستولى على الأمر فى فصل الخطاب ، وأعرب عن تبحُّره فى الأدب وعلم العرب ، وتمكنه من جودة الحفظ ، وقوة النقد ؛ فسار الكتاب مَسير الرياح ، وطار فى البلاد بغير جناح ، وقال فيه بعض معاصريه من أهل نيسابور :

أيا قاضيًا قد دنتْ كتبه ∴ وإن أصبحَتْ دارُه شاحطهْ
كتابُ الوساطة فى حُسْنِه ∴ لعِقْدُ معاليك كالوَاسِطَه

وقال صاحب كشف الظنون :

" وأما القاضى أبو الحسن فإنه ادَّعى التوسط بين خصوم المتنبى ومحبّيه ، وذكر أن قومًا مالوا إليه ، حتى فضّلوه فى الشعر على جميع أهل زمانه ، وقوماً لم يعدّوه من الشعراء وازْدَرَوْه غاية الازدراء حتى قالوا : إنه لا ينطق إلا بالهَوى ؛ ولم يتكلم إلا بالكلمة العوراء ، ومعانيه كلها مسروقة . فتوسط بين الخصمين ، وذكر الحقّ من القولين " .

وليس كتاب الوساطة مختصًّا بشعر المتنبى كما يفهمُ من عنوانه، بل إنه عَرَضَ للأصول الأدَبية التى عرفتْ فى عصره ، وحلّل أشعار القدماء والمُحْدَثين ؛ وأوْرَدَ كثيرًا من محاسنهمْ وعيوبهم ، وأبان ما شاع فيها من تعقيد وغموض ، وأَخْذٍ وسرقة ، واستعارة حسنة أو رديئة ، ثم عرض للبيئة وأثرها فى الشعر والبداوة وما تحدثه من جَفْوةٍ فى الطباع ، والحضارة وما ينشأ عنها من رِقَّةٍ وسهولة ، ثم عرض لخصوم المتنبى وأَنْصاره ، ومعانيه المأخوذة أو المخترعة... كل ذلك وغيره أوردهُ فى أسلوب واضح، وعرض شامل ؛ مما ستراه حين تمضى فى قراءة الكتاب .

مؤلف الكتاب :

هو أبو الحسن على بن عبد العزيز الجرجانىّ المشهور بالقاضى.

ولد فى جُرْجَان سنة ٢٩٠هـ ، ونشأ بها . وكانت الدولة الإسلامية قد بلغت نُضْجَها العلمىّ ، وتعددت الحواضِرُ الإسلامية تزخَرُ بالعلم والعلماء ، وأصبحت الرِّحلة سبيلَ التعلم والدّرس ؛ فجاب الأرضَ ، وزار العراق والشام والحجاز ، ولقِىَ مشايخ وقْته وعلماء عَصْرِه ، واقتبس العلومَ والآداب، وصار فيها علَمًا وإمامًا.

اشتهر بالفقه ، وترجم له الشيرازى فى طبقات الفقهاء ، وفسَّر القرآن الكريم ، وذكره السيوطى فى طبقات المفسّرين ، واشتغل بالتاريخ وله فيه آثار ، ثم هو شاعر مُتْقِن ، وكاتبٌ مترسّل ، وناقد لوذعى بصير . وفيه يقول صاحب اليتيمة :

" حَسَنَة جُرجان ، وفَرْد الزمان ، ونادرة الفُلْك ، وإنسان حَدَقة العلم ، ودُرّة تاج الأدب ، وفارس عسْكر الشعر ، يجمع خطّ ابن مُقْلة ، إلى نثر الجاحظ ، ونظم البحترىّ ؛ وينظم عقد الإحسان والإتقان فى كل ما يتعاطاه " .

وفيه يقول الصاحب بن عبّاد :

إذا نحن سلَّمنَا لك العلمَ كلّه ∴ فدعْنا وهذى الكتْبَ نحنْ صدورَها
فإنهمُ لا يرتضون مجيئَنا ∴ بِجَزْعٍ إذا نظَّمت أنْت شذورَها

عرف له الصاحب فضلَه فولاّه قضاء الرّى ، وكانت حضرةُ الصاحب محطَّ رحال العلماء والشعراء والأدباء . واحتفى به من نجوم الأرض وأبناء الفضْل وفرسان الشعر مَنْ يُربى عددهم على من اجتمع على أبواب الرشيد ، مثل : أبى الحسن السلاّمى ، وأبى بكر

الخوارزميّ ، وأبى طالب المأمونى ، وأبى القاسم الزعفرانىّ ، وأبى الفضل الهمذانى ... وغيرهم .ولكن القاضى على بن عبد العزيز كان آثرَهم عنده ، وأقْربهم إليه ؛ لفَضْله ومكانته ، وعلوّ منزلته ، وشرَف نفسه . قال أبو نصر التهذيبى :

سمعت القاضى أبا الحسن على بن عبد العزيز يقول : انصرفْتُ يومًا من دار الصاحب – وذلك قبيل العيد ، فجائنى رسولُه بغطر الفِطْر ، ومعه رقعة بخطه فيها هذان البيتان :

يأيها القاضى الذى نفسى له ∴ معْ قرْب عهد لقائه مشتاقهْ
أهديتُ عِطرًا مثل طيب ثنائه ∴ فكأنما أهدِى له أخلاقَهْ

قال : وسمعته يقول : إن الصاحب يقسم لى من إقباله وإكرامه بجرجان أكثر مما يتلقانى به فى سائر البلاد ، وقد استعفَيْته يومًا من فَرْط تَحَفّيه بى ، وتواضعه لى ، فأنشدنى :

أكرمْ أخاك بأرض مولده ∴ وأمِدّه من فعلك الحسَنِ
فالعزّ مطلوبٌ وملتمسٌ ∴ وأعزُّه ما نيلَ فى الوطنِ

وكتب إلى حسام الدولة أبى العباس الحاجب يقول : " قد تقدم من وصفى للقاضى أبى الحسن على بن عبد العزيز فيما سبق إلى حضرة الأمير الجليل صاحب الجيش – دام علوّه – من كتبى ما أعلم أنى لم أُؤَد فيه بعض الحقّ ، وإن كنتُ دلَلْتُ على جملةٍ تنطق بلسان الفضل ، وتكشف عن أنَّه من أفراد الدَّهر فى كل قِسم من أقسام الأدب والعلم ؛ فأما موقعه منّى فالموقعُ الذى تخطب فيه هذه المحاسن ، وتوجبه هذه المناقب ؛ وعادته معى ألاَّ يفارقنى مقيمًا وظاعنًا ، ومسافرًا وقاطنًا . وقد احتاج الآن إلى مطالعة جرجان ، بعد أن

شرطتُ عليه تصيير المقام كالإلمام ، فطالبنى مكانُه بتعريف الأمير مصدره وموردِه ؛ فإن عنّ له ما يحتاج إلى عَرْضِه وجدّ من شرف إسعافه ما هو المعتاد من فضله ؛ ليتعجّل انكفاءَه إلىّ بما رسم - أدام الله أيامه - من مظاهرتِه على ما يقدّم الرحيل ، ويفسح السبيل ؛ من بَذْرَقَةٍ [1] إن احتاج إلى الاستظهار بها، ومخاطبة لبعض مَنْ فى الطريق يتعرف النّهْج فيها ، فإن رأى الأميرُ أن يجعلَ من حظوظى الجسيمة عنده تعهدَ القاضى أبى الحسن بما يعجّل ردَّه ؛ فإنى ما غاب كالمضلّ الناشد ، وإذا عاد كالغانم الواجد ؛ إن شاء الله " .

وقد عرف القاضى أبو الحسن للصاحب كيف يَجْزِيه عن وُدِّه، ويكافئه عن تحفّيه به ؛ فسيَّر فيه مدائحَ يقول فيها الثعالبى : " أخلصت على قصْد ، وأتت من فَرْد ، وما فيها إلا صوبُ العقل ، وذَوْب الفضل " .

ومن قوله فيه يهنئه بالبُرْءِ من المرض .

أفى كلِّ يوم للمكارم رَوْعةٌ ∴ لها فى قلوب المكرُمات وجَيبُ
إذا ألمَت نفسُ الوزير تألّمتْ ∴ لها أنْفُسٌ تحيا بها وقُلوبُ
ووالله لا لاحظتُ وجهًا أحبُه ∴ حياتى وفى وجهِ الوزير شُحوبُ
وليس شحوبًا ما أراه بوجْهِه ∴ ولكنه فى المكرمات نُدُوبُ
تهلّلَ وجْهُ المجد وابتسم الندى ∴ وأصبح غُصْنَ الفَضل وهو رطيبُ
فلا زالتِ الدنيا بملْكك طلقةً ∴ ولا زال فيها من ظلالِكَ طيب

* * * * *

قال الحاكم فى تاريخ نيسابور : " ولم يزل أبو الحسن يتقدّم إلى

---

(١) بذرقة : الخفارة فى الطريق .

أنْ ذُكر فى الدنيا ، وحُمِل تابوتُه إلى جرجان فدُفن بها ، وصلّى عليه القاضى أبو الحسن عبد الجبار ابن أحمد ، وحضر جنازته الوزير الخطير مجد الدولة ، وأبو الفضل العارض راجلين[١] . وكان ذلك كما يقول ابن خلكان – سنة ٣٦٦هـ [٢] ؛ وعمره ٧٦ عامًا .

أدبه وآثاره :

أما آثاره فقد ذكر منها ياقوت فى معجم الأدباء " تفسير القرآن الكريم " ، وكتاب " تهذيب التاريخ " ؛ نقل عنه ابن خلدون فى تاريخه الكبير ، وذكره الثعالبى فقال : " إنه تاريخٌ فى بلاغة الألفاظ ، وصحة الروايات ، وحسن التصرف فى الانتقادات " ، وأورد فصلين منه فى يتيمة الدهر ؛ ثم كتاب " الوساطة بين المتنبى وخصومه " – وقد سبق الحديث عنه – وله ديوان شعر ذكره ابن خلكان ؛ يجمع بين العذوبة والجزالة ؛ وتترقرق فيه شمائلُه السمحة الرضيّة ، ونفسه الكريمة الأبية؛ فمن غزله الرقيق:

أفدى الذى قال وفى كفِّه ∴ مثلُ الذى أشربُ منْ فيه
الورد قد أينَعَ فى وجْنَتى ∴ قلت : فَمى باللّثْم يجنيه

ومن قوله فى الحنين إلى بغداد :

أراجعة تلك الليالى كعهدِها ∴ إلى الوصلِ أم لا يُرتَجى لى رجوعُها
وصحبة أحبابٍ لبست لفقدهمْ ∴ ثيابَ حدادٍ يُسْتَجَدُ خليعُها
إذا لاح لى من نحوِ بغداد بارقٌ ∴ تجافت جفُونى واستُطير هُجوعُها

---

(١) راجلين : سائرين على أقدامهما .

(٢) فى معجم الأدباء ج ١٤ ص ١٥ : مات بالرى يوم الثلاثاء لست بقين من ذى الحجة سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة. وكذلك فى تاريخ أدب اللغة لجورجى زيدان ٢ – ٣٩٢. وفى ابن خلكان (١-٥٨٤) وقال غير الحاكم : توفى سنة ٣٩٢ ، ونقل الحاكم أثبت وأصح .

سقى جانبىْ بغـداد كـلُّ غمامـة ∴ يحاكى دمـوعَ المسـتهام هُمُوعهـا
مَعَاهِدُ من غزلانِ أنسٍ تحالفتْ ∴ لواحظُهـا ألاَّ يُـداوَى صـريعُها
يحـنّ إليهـا كـلَ قلـب كأنَّمـا ∴ يُشَـاد بحبَّـات القلـوب ربيعُهـا
فكلُّ ليالى عيشها زَمَـنُ الصِّبا ∴ وكلُّ فصـولِ الـدهرِ فيهـا ربيعُهـا

ومن قوله يصف نفسه :

يقولون لى فيكَ انقبـاض وإنمـا ∴ رأَوْ رجلاً عن موقفِ الذلّ أحْجَمـا
وما زلتُ منحازًا بِعِرضى جانبًـا ∴ من الذمِّ أعتَـدُّ الصـيانةَ مَغْنمـاً
إذا قيل هذا مشربٌ قلتُ قـد أرى ∴ ولكنَّ نفسَ الحرِّ تحتمـل الظّمـا
ولم أقضِ حقَّ العلمِ إنْ كان كلّمـا ∴ بدا مطمَـعٌ صـيَّرتُه لـىَ سُـلَّمَا
ولم أبْتذِل فى خدمة العلمِ مُهْجَتى ∴ لأخدُم مَنْ لاقيـت لكـن لأخْـدما
أأشقى به غَرْسـا وأجنيـه ذلـةً ∴ إذًا فابتياعُ الجهل قد كان أحزَمـا
ولو أن أهلَ العلمِ صانوه صـانهم ∴ ولو عظموه فـى النفـوس تعظّمـا

رحم الله حسنة جرجان وفرد أبناء الزمان رحمة واسعة فقد نفـع البلاغين والنقاد بكتابه الرائع . الوساطة بين المتنبى وخصومه الـذى أضحى من عيون النقد الأدبى لدى العرب وغيرهم على مر القـرون العشرة الماضية وسيبقى كذلك إلى الأبد بمشيئة الله تعـالى فجـزاه الله أطيب الجزاء وأوفاه.

﴿ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾

الأستاذ الدكتور / على البدرى
عميد كلية اللغة العربية بالقاهرة
ورئيس قسم البلاغة والنقد
والمشرف على قسم الصحافة والإعلام سابقًا
وعميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية بالمنصورة

الإنسان بين النقص والكمال :

بدأ القاضى رحمه الله تعالى كتابه بالحديث عن أهل النقص وبين أن نقصهم هو سبب حسدهم لأهل الكمال . وقال : التنافس سبب التحاسد .

وأهل النقص رجلان : ناقص آتاه النقص من قبله . وقعد به عن الكمال اختياره . فهذا يمكنه أن يستفيد من الأفاضل . وناقص رأى النقص ممتزجًا بخلقته . فاستشعر اليأس من زواله . وهذا يلجأ دائمًا إلى حسد الأفاضل وبغضهم .

وهذا الناقص يتوهم أن أبلغ الأمور فى جبر نقيصته . اجتذاب الأفاضل إلى مشاركته نقصه ووسمهم بمثل سمته وقد يؤدى حقده إلى عكس مراده قال أبو تمام :

وإذا أراد الله نشر فضيلة ∴ طويت أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ∴ ما كان يعرف طيب عرف العود

يقول القاضى : صدق والله وأحسن . كم من فضيلة لو لم تستثرها المحاسد لم تبرح فى الصدور كامنة . ولكنها برزت فتناولها الحاسدون يجلونها ظانين أنهم يمحونها . حتى يعثر بها من يعرف فضلها . فتكتسى من فضله أحسن ملبس . فتعود بعد الخمول نابهة . يقول الله تعالى : ﴿ **وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ** ﴾ .

ولم تزل العلوم أنسابًا لأهلها يتناصرون بها . وأعظم الحرمات حرمة العلم فهو رونق الوجه وغاية القدر ومنار الاسم ومطية الذكر . وهو مفتاح إسلام الوجه لله وحده !

والعالم الصادق يجب أن يستسلم للحجة . وأن يتوقف عند

الشبهة. وأن يقضى بالحق ولو على نفسه . عندئذ يصير قوله برهانًا مسلمًا ويقضى له بالقبول إن شاء الله تعالى .

المتنبى شاغل الناس :

يرى القاضى الجرجانى رحمه الله تعالى أن الناس يقفون من هذا الرجل فى إحدى فئتين : فئة مطبة فى الإعجاب به وأخرى عائبة تود إزالته عن رتبته . ويقول وكلتا الفئتين ظالمة له أو للأدب العربى فى شخصية المتنبى .

وللفضل آثار ظاهرة . متى وجدت فصاحبها فاضل متقدم . فإن عثر له على زلة . وجب العثور له على عذر صادق . فإن أعوز فلكل عالم هفوة . وأى الرجال المهذب . ولولا هذا لما وجد فاضل أبدًا . وأى عالم عرفه الناس ولم يزل . وأى شاعر فى الدنيا لم يهف ولم يسقط . ؟ إنه لا أحد . !!

لا أحد فوق النقد :

فحول الشعر والنثر فى جميع عصور الأدب لم يسلم أحد منهم من أن يهفو فيجئ بشعر مسترذل إما فى لفظه وإما فى نظمه أو فى ترتيب البيت أو تقسيمه أو فى إعرابه أو فى معناه !! يوجد هذا فى شعر الجاهلية . وفى شعراء المسلمين على حد سواء .

تأليف الشعر بين الضعف والقوة :

إن إهدار القواعد النحوية فى النظم يؤدى حتمًا إلى ضعف تأليفه. وقد وقع الكثيرون من الشعراء فى هذا العيب . ومن أخطاء الشعر مثلاً قول امرئ القيس :

فاليوم أشربْ غير مستحقب ∴ إثما من الله ولا وَاغِلِ

فسكن الفعل (أشرب) بدون جازم وهذا من ضعف التأليف .

ومنه قول لبيد :

تـــراك أمكنـــة إذا لـــم أرضـــها ∴ أو يرتبط بعض النفوس حمامها

فجزم يرتبط ولا عمل فيه للم إلا على وجه بعيد !!

وقول طرفة بن العبد يصف قبرة :

قد رفع الفخ فمـــاذا تحـــذرى ∴ ونقرى مـــا شـــئت أن تنقـــرى

فحذف النون من تحذرين بدون ناصب أو جازم .

وقول الأسدى :

كنـــا نرقعُهـــا وقـــد مزقـــت ∴ واتسع الخـــرق علـــى الراقـــع

فجزم الفعل (نرقع) بدون جازم .

ومنه قول الراعى يهجوا ابن الرقاع العاملى :

تأبى قضاعة أن تعرفْ لكم نســبا ∴ وابنا نزار وأنتم بيضـــة البلـــد

فجزم تعرف بدون جازم .

وقول الآخر :

يا عجبا والدهر جـــم عَجَبُـــهْ ∴ من عَنَزىٍّ ســـبنى لـــم أضـــربُه

فرفع أضرب بعد لم .

وقول الفرزدق :

وعض زمان يابن مروان لم يدع ∴ من المال إلا مســـحتًا أو مجلـــفُ

المسحت : المهلك . والمجلف : الذى بقيت فيه بقية . وقد عطف الشاعر المرفوع على المنصوب . قال أبو عمرو بن العلاء: لا أعرف

لَهُ وجهًا . وتأوله النحاة على أنه خبر لمبتدأ محذوف . وعلى آية حال فهو من أبين شواهد ضعف التأليف .

وقول بعض الرجاز :

كانت عجوزا عمرت زمانا ∴ وهي ترى سيئها إحسانا
تعرف منها الأنف والعينانا ∴ ومنخرين أشبها ظبيانا

فرفع المثنى (العينان) وحقه النصب وفتح نون المثنى وحقه الكسر . ورفع مثنى آخر (ظبيان) وحقه النصب أيضًا .

وقول الآخر :

طاروا عليهن فطر علاها ∴ واشدد بمثنى حقب حقواها
ناجيةً وناجيًا أباها .

فرفع (حقواها) وحقه النصب . ونصب (أباها) وحقه الرفع . وذلك كله ضعف تأليف .

والحقب حبل يشد به الرحل إلى بطن البعير . والحقو الكشح.

ومن ضعف التأليف فى الشعر أيضًا قول الفرزدق :

فلو كان عبد الله مولًى هجوته ∴ ولكن عبد الله مولى مواليا

ففتح الباء من موالٍ فى حال الجر والقياس موالٍ ولم يكتف بهذا بل أتى له بألف الأطلاق لضرورة الوزن .

مثل هذه العيوب النحوية تجعل تأليف الشعر ضعيفًا وهذا ما سماه البلاغيون " ضعف التأليف وعدّوه مخلا بفصاحة الكلام _ أما الشعر القوى فيجب أن يسلم تأليفه من أى عيب مخل بالفصاحة فى المفردات أو فى التراكيب وأن يكون مع ذلك مطابقًا لمقتضى الحال.

من عيوب المعانى :

المعانى الصحيحة التى عرفها الناس من تجاربهم لا بد من احترامها والسير على منوالها ومع هذا فقد يخطئ بعض الشعراء فى بعض المعانى كقول امرئ القيس :

وأركب فى الروع خيفانةً ∴ كسا وَجْهَهَا سَعَفٌ منتشر

وكثرة الشعر فى وجه الفرس عيب بين لأنه يقلل من قدرته على الأبصار وبخاصة إذا كان طويلاً كالسعف . ولكن امرأ القيس جعله كسوة للوجه .

ومن الخطأ فى المعانى أيضًا قول زهير :

يخرجن من شرباتٍ ماؤها طحل ∴ على الجذوع يخفن الغم والغرقا[1] .

والضفادع لا تخاف شيئًا من ذلك .

ومما نحن فيه قول أبى ذؤيب يصف الفرس :

قَصَرَ الصبوحَ لها فشرج لحمها ∴ بالنِّىِّ فهى تثوخ فيها الأصبع

قال الأصمعى : حمار القصار خير من هذا . وإنما يوصف الفرس بصلابة اللحم .

قصر الصبوح لها . أى جعل صبوحها اللبن دون الماء . وشرح اللحم : خالطه الشحم . والنىّ : الشحم . وتثوخ فيها الإصبع : أى لو أدخل أحد أصبعه فى لحمها لدخل لكثرة شحمها ولحمها .

وتأمل قول امرئ القيس أيضًا :

إذا ما الثريا فى السماء تعرضت ∴ تعرض أثناء الوشَاح المفصل

---

(١) الوساطة بين المتنبى وخصومه . للقاضى الجرجانى ص ١٠ .

والثريا لا تتعرض وإنما تتعرض الجوزاء . فما الذى ألجأه إلى وضع إحداهما فى موضع الأخرى ؟

وقول رؤبة :

كنتم كمن أدخل فى جحر يدا ∴ فأخطأ الأفعى ولاقى الأسودا

فجعل الأفعى دون الأسود وهى أشد نكاية منه . وبها يضرب المثل فى شدة السمية !!

وقول زهير :

فتنتج لكم غلمان أشأم كلهم ∴ كأحمر عاد ثم ترضع فتفطم

وإنما هى أحمر ثمود فخلط الشاعر أو الجأته الضرورة .

وكقول أبى ذؤيب فى الدُّرَّة :

فجاء بها ما شئت من لَطَمِيَّة ∴ يدور الفرات حولها ويموج

فالفرات نهر عذب فى العراق وسوريا وتركيا والدر لا يوجد إلا فى المياه المالحة كالبحار والمحيطات والبحيرات والخلجان .

وكقول الحطيئة يصف جيشًا :

فيه الرماح وفيه كل سابغة ∴ جدلاءَ محكمة من نسج سَلام

وقول النابغة الذبيانى :

وكل حموتٍ نثلةٍ تُبَّعِيَّةٍ ∴ ونسجُ سُلَيم كل قضّاء ذائل

والصموت من الدروع اللينة الملمس . ونثلة واسعة . وتبعية منسوبة إلى تبع ملك اليمن والقضاء المحكمة ودرع ذائل : طويل الذيل.

وفى البيت الأول وصفت الدرع بأنها من نسج سلام وفى الثانى

من نسيج سليم وهما خطأ .

أراد كل من الحطيئة والنابغة داوود فغلطا إلى سليمان ثم غلطا فى اسمه فجعله أحدهما سَلاَّمًا وجعله الثانى سُلَيْم بزنة خريم . والحق ما قال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلا يَاجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ * أَنْ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** ﴾ (١) .

وقول أبى نخيلة :

بريةٌ لم تأكل المرققا ∴ ولم تذق من البقول الفُسْتُقَا

فجعل الفستق بقلا وهو ليس كذلك .

وأشباه ذلك كثير كثير . ومن ثم وجب تنبيه الشعراء والأدباء إلى ضرورة التأكد من صحة المعانى التى يوردونها فى أشعارهم !!

أدوات الشعر

الشعر العربى فن يشترك فيه الطبع والرواية والذكاء . ومادته الدربة . فمن اجتمعت له هذه الخصال أحسن وبرز . وبقدر نصيبه منها تكون مرتبته من الإحسان .

وليس من الصواب التفاضل بين القديم والمحدث . والجاهلى والمخضرم . والأعرابى والمولد . فلكل عصر خصائصه وحاجة المحدث إلى الرواية أمس وإلى الحفظ أكثر - والمطبوع الذكى يتناول الألفاظ العربية روايةً والرواية طريقها السمع ثم الحفظ .

كان زهير راوية لأوس بن حجر . والحطيئة راوية زهير . وكان أبو ذؤيب راوية ساعدة بن جويرية وكان عبيد راوية الأعشى.

---

(١) سورة سبأ الآيتان ١٠ ، ١١ .

ولا تفاضل بين العرب فى اللغة واللسان . والمنطق والعبارة . وإنما التفاضل بشئ من الفصاحة والموهبة ولهذا تجد الرجل شاعرًا مغلقًا ولصيق طنبه بكيئا مفحمًا فهل ذلك من جهة الطبع والذكاء والقريحة والفطنة . ؟ إنه كذلك !!

ولو حاول أعلمنا باللغة . وأكثرنا رواية للغريب ، وأعانه الله تعالى بأصح طبع وأثقب ذهن أن يقرض بيتا يماثل شعر امرئ القيس وزهير . فى فخامته وقوة أسره لوجده أبعد من العيوق متناولاً ذلك لأن العرب اعتادت يومئذ تفخيم الألفاظ . وجمال المنطق أكثر من أى شئ آخر فجاء الشعر القديم كما تراه فخماً جزلاً قويًا متينًا . هذا وقد تباينت الجزالة والصلابة والرقة والتوعر. حسب اختلاف الطبائع . فالجافى الجلف فى كل زمان تراه كزّ الألفاظ . معقد الكلام . وعر الخطاب . ولأجله قال النبى ﷺ : " من بدا فقد جفا " ولذلك تجد شعر عدى وهو جاهلى أسلس من شعر الفرزدق ! وهو أموى .

ولما اتسعت رقعة الأرض الإسلامية . وتحضر كثير من الأعراب اختار الناس من الكلام أسهله وألينه [١] .فإذا تحدثوا عن شئ ذى أسماء كثيرة اختاروا أحسنها سمعا وألطفها موقعا – وإن كان فى الكلمة لغات اختاروا أسلسها وأشرفها . فقد اختاروا لفظ الطويل مثلاً وللعرب فيه نحو من ستين لفظة أكثرها بشع كالعَشَنَّط والعَطْنط والعشنق . والشوقب والسلهب والشوذب والطوط والطاط والقوق والقاق .....

فنبذوا ذلك كله واكتفوا بالطويل لخفته على اللسان. وعدم نبو السمع عنه .

---

(١) الوساطة للقاضى الجرجانى ص ١٨ .

فلما أصابهم لين الحضارة ترققوا ما أمكن . فإن رام أحدهم الأغراب . وقع فى أشد التكلف . ومع التكلف المقت . والنفس تنفر من التصنع . ومع مفارقة الطبع تقل الحلاوة ويذهب الرونق . وتخلق الديباجة وتطمس المحاسن كما تجد ذلك فى كثير من شعر أبى تمام كقوله :

فكأنما هى فى السماع جنادل ∴ وكأنما هى فى القلوب كواكبُ

فقد تعسف وتصعب . وجنح إلى البديع وبعد العناء والمشقة ظهر تكلفه وتصنعه . حتى قال عنه القاضى الجرجانى : وماذا عليه لو حذف نصف شعره فقطع ألسن العيب عنه . ولم يشرع للعدو بابًا فى ذمه . !! وهذا عين الحكمة والصواب .

لكل مقام مقال :

تختلف المقالات تبعًا لاختلاف المقامات ففى مقام الافتخار مثلا تفخم العبارات والألفاظ . لأنه ينبغى تقسيم الألفاظ على رتبة المعانى . وفى مقام المديح تختلف الألفاظ أيضًا . فإن المدح بالشجاعة والبأس ليس كالمدح باللباقة والظرف . ووصف الحرب والسلاح ليس كوصف المجلس والشراب فلكل مقام نهج هو به أملك ؛ وطريق لا يشاركه الآخر فيه .

وهذا أمر يجب مراعاته فى الكتابة والشعر والنثر والخطب والرسائل . والوعد والوعيد فالكتاب فى الفتح أو الوعيد غيره فى التهنئة واقتضاء المواصلة !! والخطاب فى التحذير والزجر أفخم منه فى الوعد والأمانى !

فأما مقام الهجو . فأبلغه ما جرى مجرى الهزل والتهافت وما

اعترض بين التصريح والتعريض. وما قربت معانيه وسهل حفظه. فأما القذف والأفحاش فسباب محض ويجب على المسلم أن يبتعد عنه تمامًا .

وملاك الأمر فى هذا الباب ترك التكلف والتعمل – والاسترسال مع الطبع المهذب الذى صقله التأديب وشحذته الرواية وجلبته الفطنة . وألهم الفصل بين الجيد والردئ والحسن والقبيح.

هذا ومطابقة الكلام لمقتضى الحال روح البلاغة العربية فى جميع العصور .

المطبوع والمصنوع من الشعر :

الشعر المطبوع تستريح النفس إليه وتهش عند سماعه وتطرب ويستولى عليها الرضا والارتياح .

وكما أشرنا فإن ذلك خاص بالطبع المهذب الذى صقله التأديب بعد موهبة يمن الله بها على من يشاء .

وإذا أحسست بهذا عرفت الفرق بين المصنوع والمطبوع . وفصل ما بين السمح المنقاد . والعصى المستكره !

تأمل الشعر الذى قيل عفو الخاطر ومن أول الفكرة فعد فى أول مراتب الاختيار والجودة .

تأمل قول البحترى فى محبوبته علوة [1] .

ألام على هواك وليس عدلا ∴ إذا أحببت مثلك أن ألاما

أعيدى فىّ نظرة مستثيب ∴ توخى الأجر أو كره الأثاما

∴

---

(١) - ديوانالبحترى ج ٢ ص ٢٢٥ .

ترى كبدا محرقة وعينا ∴ مؤرقة وقلبا مستهاما
تناءت دار علوة بعد قرب ∴ فهل ركب يبلغها السلاما
وجدد طيفها عتبا علينا ∴ فما يعتادنا إلا لماما
وربت ليلة قد بت أسقى بعينيها وكفيها المداما
قطعنا الليل لثما واعتناقا وأفنيناه ضما والتزاما

وهذا نسيب تستريح إليه نفوس الكثيرين . ولكن يجب أن نقول لأمثال البحترى إن مثل هذا القول لا تسمح به مكارم الأخلاق والعفاف والفضيلة . فلا يحسن أن يقول رجل مثل هذا القول فى زوجته . وقوله هذا فى امرأة أجنبية فهو أشد قبحًا إنه يعترف بأنه قضى ليله كله مع عشيقته لثما واعتناقا وضما والتزاما . وهذا هو الفحش بعينه والعياذ بالله تعالى . وحبذا لو كف الشعراء عن مثل هذا الإسفاف الخلقى والمعنوى ولكنه من حيث الصياغة بالغ حد الروعة والإعجاب وحدث عنه ولا حرج .

وتأمل قول البحترى أيضا فى المديح :

بلونا ضرائب من قد ترى ∴ فما إن وجدنا لفتح ضريبا
هو المرء أبدت له الحادثا ∴ ت عزما وشيكا ورأيا صليبا
تنقل فى خلقى سؤدد ∴ سماحًا مرجى وبأسًا مهيبًا
فكالسيف إن جئته صارخًا ∴ وكالبحر إن جئته مستثيبا
فتى كرم الله أخلاقه ∴ وألبسه الحمد بردا قشيبا
وأعطاه من كل خير يعـ ∴ ـدُ حظًّا ومن كل مجد نصيبًا
فديناك من أى خطب عرى ∴ ونائبة أوشكت أن تنوبا

يدعى الشاعر فى بيته الأخير أنه يفدى وزيره الفتح بن خاقان

من أى خطب عرى ومن أية نائبة أوشكت أن تنوب وللأسف لم يصدق الشاعر فيما وعد به . فعندما حان حين الوزير مع الخليفة (المتوكل) كان شاعرهما أول من هرب ثم يتعطف ممدوحه الفتح بن خاقان وزير المتوكل فيقول : عندما كان فى أيام الصفاء .

أكذب ظنى بأنْ قد سخطت ∴ وماكنت أعهد ظنى كذوبًا
ولو لم تكن ساخطًا لم أكن ∴ أذم الزمان وأشكو الخطوبا
أبيع الأحبة بيع السوام ∴ وأثنى عليهم حبيبًا حبيبا
ففى كل يوم لنا موقف ∴ يشقق فيه الوداع الجيوبا
سأصبر حتى ألاقى رضاكَ ∴ إما بعيدا وإما قريبا
أراقب رأيك حتى يصح ∴ وأنظر عطفك حتى يؤوبا

إن الشاعر يكذب ظنه فى أن الممدوح ساخط عليه . وعهده بظنه أنه لا يكذب وغضب الممدوح يحيل أوقات الشاعر إلى هم مقعد مقيم. فيترك أحبته ويثنى عليهم . ويتجرع غصة الفراق .

ولكنه فى النهاية يلوذ بالصبر حتى يحظى برضا الفتح بن خاقان فى المستقبل القريب أو البعيد وينتظر فى هذا فكره الثاقب وعطفه المديد . والمقطوعة كلها من عيون الأدب .

الشعر بين الإطناب والحشو . والتطويل .

قد يطنب الشعراء فى آداء معانيهم فتكثر ألفاظهم كثرة لا تخلو من فائدة . وذلك إطناب محمود ولكنهم قد يأتون بألفاظ زائدة عن المراد وتكون هذه الزيادة غير مفيدة . فتكون تطويلاً أو حشوا والتطويل لا يتعين فى اللفظ الزائد كما فى قوله :

وقددت الأديم لراهشيه ∴ وألفى قولها كذبا ومينا

فالكذب والمين بمعنى واحد . وأحدهما غير مفيد فهو تطويل.

أما إذا كان الزائد غير المفيد متعينا فهو حشو .

والشعراء قد يشبهون العيون الواسعة بعيون الجآذر ونواظر الغزلان تأمل قول امرئ القيس :

تصد وتبدى عن أسيل وتتقى ∴ بناظرة من وحش وجرة مطفل

وقول عدى بن الرقاع :

وكأنها بين النساء أعارها ∴ عينيه أحور من جآذر جاسم
وسنان أيقظه النعاس فرنقت ∴ فى عينه سنة وليسَ بنائم

فلا فرق بين وحوش وجرة وغيرها ولا بين جآذر جاسم وأشباهها فى كل زمان .

فكلمتا (جاسم ، وجرة) حشو فى البيتين .

أما الشعر الذى جمع البلاغة من أقطارها وتفنن فيه بين ألوان الإيجاز والإطناب والسبك والحبك والجزالة والرشاقة والإحكام والمتانة . وأصناف البديع وفنون الحسن . فهو ما اختيرت فيه المفردات والتراكيب والأدوات وطابق مقتضى الحال . فكقول الصمة بن عبد الله القشيرى :

أقول لصاحبى والعيس تهوى ∴ بنا بين المنيفة فالضمار
تمتع من شميم عرار نجد ∴ فما بعد العشية من عرار
ألا يا حبذا نفحات نجد ∴ وربا روضه رغبَّ القطار
وعينك إذ يحل القوم نجدًا ∴ وأنت على زمانك غير زار
شهور ينقضين وما شعرنا ∴ بأنصاف لهن ولا سرار
فأما ليلهن فخير ليل ∴ وأقصر ما يكون من النهار

فهو كما تراه شعر مطبوع بعيد عن الصنعة حلو الألفاظ . سهل المأخذ قريب التناول.

إنه يتذكر سعادة أيام إقامته بنجد . فيقول لصاحبه أثناء الرحيل تمتع بالرائحة الذكية لورود نجد فعند العشية سنرحل عنها ! ثم يتحسر على فراقها . وهوائها العليل ! ورياضها الريا ذات العشب النضير ! ويتذكر حياته الناعمة – هناك – وزمانه المشرق برغد العيش أياما وشهورا – ينقضى الزمن ولا يشعر بانقضائه حيث يتعاور الليل والنهار صور الجمال وفنون الحياة الهنيئة الرغيدة .

وذلك لعمرى هو الشعر الذى يأخذ بمجامع القلوب وتهش له النفوس ولا كذلك التكلف البغيض !!

والعرب يفاضلون بين شعر وشعر فى الجودة والحسن بشرف المعنى وصحته . وجزالة اللفظ واستقامته .

وبكثرة ما فيه من أمثال سوائر . وأبيات شوارد. بغض النظر عن التجنيس والمطابقة ونحوهما . من المحسنات لفظية كانت أم معنوية . فالمهم هو عمود الشعر . نظام القريض . ومطابقة الكلام لمقتضى الحال .

أهمية الاستعارة الغريبة فى النظم :

جاءت الصورة البيانية فى الشعر العربى القديم عفو الخاطر . وعلى غير تعمد وقصد . فجاء الشعر مطبوعًا جميلا لا تكلف فيه ولا تعمل – فلما أفضى الشعر إلى المحدثين . ورأوا مواقع الصور البلاغية الأخاذة . تكلفوا الاحتذاء عليها . وسموا عملهم هذا البديع فأحسن البعض وأساء البعض الآخر . ومن الصور البيانية الجميلة

البليغة الاستعارة فى قول زهير :

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله ∴ وعرى أفراس الصبا ورواحله

فقد شبه الصبا بجهة من جهات السير وحذف المشبه بـه وكنـى عنه بذكر شئ من لوازمه (الأفراس والرواحل) وهى استعارة أخـاذة حقا . ومثلها الاستعارة المكنية أيضا فى قول لبيد :

وغداة ريح قد كشفت وقـرة ∴ إذ أصبحت بيد الشـمال زمامهـا

يريد أصبحت الغداة والغالب عليها ريح الشمال العليلة البـاردة. وبيدها زمام القرة فقد جعل للشمال يدا فهى استعارة مكنيـة ومثلهـا جعله للقرة أو للغداة زمامًا. وهاتان استعارتان جاد بهما خيال خصيب!

ومن الصور البلاغية الجميلة أيضا الاستعارة فـى قـول ابـن الطثرية أو كثير :

ولما قضينا من منى كل حاجة ∴ ومسح بالأركان من هـو ماسـح
وشدت على دهم المهارى رحالنا ∴ ولم ينظر الغادى الـذى هـو رائـح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا ∴ وسالت بأعناق المطـى الأبـاطح

والأباطح جمع أبطح (المسيل الواسع وفيـه دقـاق الحصـى) – والاستعارة فى قوله سالت – فقد شبه السير الهادئ بسيل الماء واشتق من السيل بمعنى السير سالت بمعنى سارت فهى استعارة تصـريحية تبعية . وهى استعارة غريبة خاصية وكانت فى أصلها استعارة عامية. ولكن الشاعر أحدث فيها تصرفًا محمودًا نقلها من الابتذال إلى الغرابة. وذلك حيث اسند الفعل (سالت) إلى الأبـاطح دون المطـى . وأدخـل الأعناق فى السير . وعدى الفعل بالباء فأفاد أن الأباطح قـد امـتلأت بالمطى ذوات السير الهادئ المريح .

ومن أحسن الاستعارات قول الحصين بن الحمامُ المرى :

فلست بمبتاع الحيـــاة بذلـــة ∴ ولا مرتق من خشية المـــوت سُـــلَّمَا

يقول العلامة القاضى الجرجانى رحمه الله تعالى : وهذا قريـــب من الحقيقة وإن كان فيه شعبة من ضرب المثل . فقد شـــبه الاختيـــار بالابتياع واشتق منه مبتاع بمعنى مختار (اسم فاعل) فهـــى اســـتعارة تصريحية تبعية لأنها جرت فى اسم الفاعل بعد جريانها فى المصدر .

وشبه الهروب من الموت بارتقاء السلم واشتق منه مرتق بمعنـــى هارب وهى تصريحية تبعية كسابقتها .

وعجز البيت مأخوذ من قول زهير :

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ∴ وإن يرق أسباب الســـماء بســـلم

ومن الاستعارة الحسنة أيضًا قول ابن المعتز :

أقول ودمع العين تسرقه يدى ∴ حِـــذَارًا لـــدمع الشـــامت المتـــودد

فقد عبر عن مسح الدموع بسرقتها . استعارة تصريحية تبعيـــة على النحو السابق . وقوله :

ساروا وقد خضعت شمس الأصيل لهم ∴ حتى توقد فى ذيل الـــدجى الشـــفق

فقد شبه استجابة أشعة الشمس فى آخر النهار فى إشراقها وعـــدم حرارتها بالنسبة لهم بالخضوع واشتق منه خضعت بمعنى اســـتجابت لما يريدون وهى استعارة تصريحية تبعية كما سبق . وشبه احمـــرار الشفق بعد الغروب بالتوقد . وهى استعارة تصريحية تبعية على النحو المشار إليه ولا يكاد النظم البليغ يستغنى عن أسلوب الاستعارة أبدًا .

من الاستعارات الرديئة :

إذا عرفت الاستعارات الحسنة فمن المفيد معرفـــة عكســـها .وإن

رداءة الاستعارة يعود فيما يعود على عنصرين هامين هما بناؤها على تشبيه ردئ – وغموض الجامع بين طرفيها ، وإذا عكستهما توصلت إلى الاستعارة الحسنة السابقة . فهى مبنية على تشبيه حسن . والجامع واضح بين طرفيها تأمل قول أبى تمام :

باشرت أسباب الغنى بمدائح ∴ ضربت بأبواب الملوك طبولا

فقد شبه الشهرة بالطبول . واستعارها لها . وهى استعارة قبيحة وزاد من الأمر قبحا عندما أعلن أنه يقول المديح من أجل المال فأفاد أنه رجل بخْس . رخيص النفس يدفع مدائحه لمن يدفع له مالا . أما إحقاق الحق . وأما المثل العليا فلا حديث عنهما . وهذا إسفاف بغيض . ولا علاقة له بعزة النفس ولا بمكارم الأخلاق !! وقوله أيضًا :

إلى ملك فى أيكة المجد لم يزل ∴ على كبد المعروف من نيله برد

فقد جعل للمعروف كبدًا . ولم يبين كيف تصور ذلك !

ومثله قول أبى نواس :

يا عمرو أضحت مبيضة كبدى ∴ فاصبغ بياضا بعصفر العنب

فكيف يبيض الكبد . وكيف يصبغ بياضه بالعنب . إنها استعارات رديئة ممجوجة . ساقطة . مبنية على تشبيهات رديئة .

ولهذا يقول عنها الناقد الذواق القاضى الجرجانى رحمه الله تعالى: " فاسدد مسامعك واستغش ثيابك وإياك والإصغاء على مثل هذا. فإنه مما يصدئ القلب . ويطمس البصيرة ويكد القريحة " وأحسن صاحب الوساطة ، وأجاد فى كشفه اللثام عن هذه الاستعارات القبيحة!! حتى يحذر أمثالها البلغاء فى جميع العصور.

موازنة بين التشبيه والاستعارة :

عرض القاضى الجرجانى رحمه الله تعالى للفرق بين هذين الفنين البيانيين . ومجمل رأيه الواضح أن التشبيه لا بد فيه من ذكر الطرفين (المشبه والمشبه به) والاستعارة يكتفى فيها بأحدهما . وهذا من أعدل ما يقال فى الفرق بينهما يقول : وربما جاء ما يظنه الناس استعارة وهو تشبيه أو مثل . فقد رأيت بعض أهل الأدب ذكر أنواعًا من الاستعارة عد فيها قول أبى نواس :

والحب ظهر أنت راكبه ∴ فإذا صرفت عنانه انصرفا

يقول : ولست أرى هذا وما أشبهه استعارة . وإنما معنى البيت أن الحب مثل ظهر أو الحب كظهر تديره كيف شئت إذا ملكت عنانه . فإما أن يكون ضرب مثل أو تشبيه شئ بشئ . وإنما الاستعارة ما اكتفى فيها بالاسم المستعار عن الأصل . ونقلت العبارة فجعلت فى مكان غيرها . وملاكها تقريب الشبه . ومناسبة المستعار له للمستعار منه . وامتزاج اللفظ بالمعنى حتى لا يوجد بينهما منافرة . ولا يتبين فى أحدهما إعراض عن الآخر .

التجنيس المطلق

يطلق القاضى الجرجانى مصطلح التجنيس المطلق ويراه أشهر أوصاف التجنيس ويمثل له بقول النابغة :

وأقطع الخرق بالخرقاء قد جعلت ∴ بعد الكلال تشكى الأين والسأما[1].

يقول : إنه يقطع الأرض الواسعة التى تخرقها الرياح . بالناقة الهوجاء لصحتها ونشاطها ولهذا فإنها بعد متاعب السفر وطوله وبعده تتشكى من الإعياء والفتور .

---

(١) ديوان النابغة الذبيانى ص ٦٧ .

وبين الخرق والخرقاء جناس مطلق عند القاضى وهو جناس اشتقاق عند بعض الشراح المتأخرين وقد جعله صاحب الإيضاح من ملحقات الجناس . وصاحب الوساطة. يمثل للتجنيس المطلق عنده بقول البحترى :

صدق الغراب لقد رأيت حمولهم ∴ بالأمس تغرب عن جوانب غرب

فجانس بثلاثة ألفاظ (الغراب – تغرب – وغرب) وهو كما سبق جناس اشتقاق عند المتأخرين .

التجنيس المستوفى :

التجنيس المستوفى عند القاضى الجرجانى هو جناس تام اتفق فيه اللفظ فى نوع الحروف وعددها وترتيبها وهيئتها ولكن جاء أحدهما اسما وكان الثانى فعلاً ويمثل له بقول أبى تمام :

ما مات من كرم الزمان فإنه ∴ يحيا لدى يحيى بن عبد الله

يقول فجانس بين يحيى الإسم ويحيى الفعل بمعنى يعيش . ثم يقول ولو اتفق اللفظان فى المعنى لعد تكرارًا أو تأكيدًا لا تجنيسًا ومثل له بقول امرئ القيس :

فلما دنوت لتسديدها ∴ فثوبا لبست وثوبا أجر

فقد كرر فى البيت ذكر الثوب . كما تكرر لفظ يحيى بالياء فى بيت أبى تمام إلا أن المعنى مختلف فى بيت أبى تمام .

فكان قوله من البديع والمعنى بين الكلميتين متفق فى بيت امرئ القيس فكان صنيعه هذا تكرارا لا تجنيساً .

والتجنيس المستوفى مصطلح بديعى أقرته مدرسة الشروح على النحو الذى قال به صاحب الوساطة .

التجنيس الناقص :

هو عند القاضى الجرجانى يتحقق بنقص إحدى الكلميتين المتجانستين حرفًا عن صاحبتها . كقول الأخنس بن شهاب :

وحامى لواء قد قتلنا وحامل ∴ لواءً منعنا والسيوف شوارع

والجناس الناقص بين حامى وحامل . ولكن أصحاب شروح التلخيص سموا هذا جناساً مضارعا ، أما حام وحامل فناقص ومن الناقص قول أبى تمام :

يمدون من أيدٍ عواصٍ عواصم ∴ تصول بأسياف قواضٍ قواضب

والجناس الناقص بين كلمتى عواص وعواصم ، وقواض وقواضب .

التجنيس المضاف :

يعد القاضى الجرجانى التجنيس مضافًا إذا وصل كل من اللفظين المتجانسين بغير ما وصل به الآخر من الألفاظ ومثَّل له بقول البحترى:

أيا قمر التمام أعنت ظلما ∴ علىّ تطاوُلَ الليل التمام

ومعنى التمام واحد فى الموطنين . ولو انفرد لم يعد تجنيسا . ولكن أحدهما وصل بالقمر . ووصل الثانى بالليل. فكانا كالمختلفين فى المعنى . والحق أن هذا تكرار لا تجنيس !!

المطابقة :

أشاد القاضى الجرجانى بالمطابقة وقال : إن لها شعبا خفية ، وفيها مكامن تغمض . وربما احتاج الشئ إلى غيره فذكر لأجله . وربما اتصل بما هو أجنبى عنه واستصحبه .

ويدور كلامه فى المطابقة حول الجمع بين الشئ وضده . ويقول: ومن اشهر أقسام المطابقة ما جرى مجرى قول دعبل :

لا تعجبى يا سلمى من رجل ∴ ضحك المشيب برأسه فبكى

وقول مسلم بن الوليد :

مستعبر يبكى على دمنة ∴ ورأسه يضحك فيه المشيب

ولكن ظهور المشيب فى الرأس ليس ضدًا للبكاء . ولهذا فإن هذا وشبهه يسمى فى مدرسة التلخيص إيهام التضاد وهو الجمع بين معنيين غير متضادين ولكن عبر عنهما بلفظين يتضاد معنياهما الحقيقيان ومثل القاضى الجرجانى للطباق بقول أبى تمام :

وتنظرى خبب الركاب ينصها ∴ محيى القريض إلى مميت المال

وقوله :

هذا الذى عرفت يداه ساحتى ∴ من بعد ما جهل البخيل مكانى

طابق بين عرف وجهل . ونقول : هناك تضاد خفى بين (يداه- والبخيل).

ويقول : فكل هذا باب واحد . وقد يجئ منه جنس آخر تكون المطابقة فيه بالنفى كقول البحترى :

يقيض لى من حيث لا أعلم النوى ∴ ويسرى إلىّ الشوق من حيث أعلم

لما كان قوله : لا أعلم . كقوله أجهل . وأجهل مطابق لأعلم. كان نفى النفى طباقًا لإثباته وهو ما سمى بعد بطباق السلب .

ويرى القاضىالجرجانى رحمه الله تعالى : أن من أغرب ألفاظ الطباق . وألطف ما وجد منه قول أبى تمام :

مها الوحْن إلا أن هاتا أوانس ∴ قنا الخط إلا أن تلك ذوابل

فطابق بين بهاتا وتلك . وأحدهما للحاضر والآخر للغائب . أى للقريب . والبعيد . فكانا نقيضين فى المعنى وبمنزلة الضدين .

الجناس المضارع واللاحق :

جمهور البلاغيين على أن الجناس المضارع يتحقق باختلاف اللفظين المتجانسين فى حرف واحد من كل منهما على أن يكون مخرج كل من الحرفين المختلفين واحدًا أو متقاربًا كما فى قوله تعالى: ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ ﴾ .

ويكون الجناس لاحقًا إن كان مخرجًا الحرفين غير متقاربين كما فى قوله تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ﴾ .

ويكون الجناس مصحفًا إذا اختلف اللفظان المتجانسان فى الحركات والسكنات كما بين البُرْد والبَرَدَ بتحريك الثانية أو فى الحركات فقط كما بين البُرْد بضم فسكون والبَرْد بفتح فسكون . وسماه الخطيب القزوينى محرفًا [1] .

وأطلق القاضى الجرجانى على ذلك كله اسم التصحيف . فقال: ومن أصناف البديع التصحيف كقول البحترى :

ولم يكن المغتر بالله إذ سرى ∴ ليعجز والمعتز بالله طالبه

وهذا ليس جناسا عند جمهور البلاغيين لأن الاختلاف بين (حرفين وحرفين) فى كلمتين . وعند اختلاف الحروف يشترطون ألا يحدث الاختلاف فى أكثر من حرف واحد فى كل من الكلمتين (وتعلق الجار والمجرور بالمعتز ..... !) .

---

(١) بغية الإيضاح ج ٤ ص ٨٠ .

ومثل له أيضا بقول البحترى :

فكأن الشليل والنثرة الحَصْـ ∴ دَاء منه علـى سـليل غريـفِ

الشليل غلالة تلبس تحت الدرع. والنثرة الواسعة.والحصداء المحكمة . وسليل الغريف الأسد . والغريف القصباء . وبين الشليل والسليل جناس مضارع ويسميه القاضى تصحيفا .

ومثل له القاضى أيضا بقول البحترى :

ما بعينى هذا الغزال الغزيـر ∴ من فتونٍ مستجلبٍ مـن فتـور

فبين الفتور والفتون جناس لا حق .

ومثل له أيضا بقول اسماعيل بن عباد :

غمائم هُـنّ فـوق رؤوسـنا ∴ عمـائم لـم يُـذَلْنَ بـالخِرَقِ

أى لم يجعل ذيلهن من الخرق . وبين غمائم وعمائم جناس مضارع لوحدة مخرجى العين والغين وكل هذا ونحوه يعده القاضى الجرجانى من التصحيف .يقول : وهذا يدخل فى بعض الأقسام التى ذكرناها فى التجنيس . لكن ما أمكن فيه التصحيف فله باب على حياله. وجانب يتميز به عن غيره .

التقسيم :

يقول : ومنه التقسيم وقد يكون موصولاً كقول زهير :

يطعنهم ما ارتموا حتى إذا اطعنوا ∴ ضارب حتى إذا ما ضاربوا اعتنقا

يريد : إذا ارتمى الناس فى الحرب بالنبل . دخل الممدوح تحت الرمى فجعل يطعنهم – فإذا تطاعنوا ضرب بالسيف – فإذا تضاربوا بالسيوف اعتنق أقرانه فقتلهم – فقد قسم البيت على أحوال الحرب ومراتب اللقاء .

ثم الحق بكل قسم ما يليه فى المعنى . الذى قصده من يفضل الممدوح فصار موصولاً مقرونا إليه .

ومثل له أيضًا بقول عنترة :

إن يلحقوا أكرر وإن يستلحقوا ∴ أشدد وإن نزلوا بضنك أنزل

يقول : فهذا كالأول فى الصنيعة وإن كان إنما زاوج كل قسم بقرينة وما هو وفقه . ولم يرض الأول إلا بأن قسم ثم تقدم عن كل قسم قُدُما وارتفع عليه درجة .

وهذا عند الجمهور يسمى تفويفًا . وعرفوه بأن يؤتى فى الكلام بمعان متلائمة فى جمل مستوية المقادير أو متقاربها [1] .

يقول صاحب الوساطة : وقد تكون القسمة مطلقة غير مشفوعة . كقول النابغة :

فلله عينا من رأى أهل قبة ∴ أجز لمن عادى وأكثر نافعا
وأعظم أحلامًا وأكرم سيدًا ∴ وأفضل مشفوعا إليه وشافعا

يقول : فهذا ضَرْب من التقطيع على معان مختلفة ويقول : ولست أسمح بتسميته تقسيمًا . وقد رأيت منْ يطلق عليه هذه التسمية .

جمع الأوصاف :

وهو قريب من التقسيم ويمثل له صاحب الوساطة يقول أبى دؤاد:

بعيد مدى الطرف خاظى البضيع ∴ مُمَرَ المطا سمهرى العصب

خاظى البضيع ممتلئ اللحم . ومُمَرّ مفتول.والمطا حبل المتن. والسمهرى الشرير. والعصب يجمع علىأعصاب وهى أربطة شديدة من العضلات . وهى أطناب المفاصل التى تلائم بينها وتشدها .

---

(١) بغية الإيضاح ج ٤ ص ١٩ .

وقد يجمع على نوع آخر كقول النابغة :

طويـــل طـــامح الطـــرف ∴ إلـــى مفرعـــة الكلـــب
حديـــدُ الطـــرف والمـــن ∴ كـــب والعرقـــوب والقلـــب

يقول : وقد يعد فيه الترجيح كقول امرئ القيس :

والماء منهمر والسد منحـــدر ∴ والقُصْبُ مُضْطَمرٌ والمَتْنُ ملحوب

يقول : وقد يمتنع بعض الأدباء من تسمية بعض ما ذكرنا بديعا. لكنه أحد أبواب الصنعة – وله نظائر سنتركها حتـــى لا نخـــرج عـــن موضوعنا وحتى لا نبخس أبا الطيب حقه . والبيت الأخير يعـــد مـــن الشعر المسجوع عند من يقول به !!

مواضع العناية فى الكلام :

يقول صاحب الوساطة رحمه الله تعالى : يجتهد الشاعر الحـــاذق فى تحسين الاستهلال والتخلص والخاتمة فإنها المواقف التى تستعطف أسماع الحضور وتَسْتَميلُهم إلى الإصغاء . ولم تكن الأوائل . تخصـــها بفضل مراعاة وقد احتذى البحترى على مثالهم . إلا فى الاستهلال فإنه عنى به فاتفقت له فيه محاسن ، فأما أبو تمام والمتنبى فقد ذهبـــا فـــى التخلص كل مذهب واهتما به كل اهتمام . واتفق فيه للمتنبى خاصة ما بلغ المراد وأحسن وزاد .

خصوم المتنبى :

قال القاضى الجرجانى رحمه الله تعالى : إن خصوم هذا الرجـــل فريقان.

أحدهما يعم بالنقص كل محدث . ولا يـــرى الشـــعر إلا القـــديم الجاهلى وما سلك به ذلك المنهج وأجرى على تلك الطريقة ، ويســـمى

شعر المحدثين من أمثال بشار وأبى نواس وطبقتهما ملَحاً وطرَفًا ويجريه مجرى الفكاهة فإذا نزلت به إلى أبى تمام وأضرابه. نفض يده. وأقسم أن القوم لم يقرضوا بيتا قط .

والمتنبى بطبيعة الحال واحد من المحدثين . فهو كأحدهم - وكثير من حفاظ اللغة قد عابوا المتأخرين .

ولم يسلموا فضيلة لمحدث ولا أقروا بالأحسان لمولد . والثانى يحسد المتنبى خاصة ويجرده من كل فضيلة !!

الكيل بمكايلين فى النقد :

حكى عن إسحاق الموصلى أنه قال : أنشدت الأصمعى :

هلْ إلى نظرةٍ إليكَ سبيلٌ ∴ فَيُبَلّ الصدى ويُشْفَى الغليل
إن ما قل منك يكثر عندى ∴ وكثير ممن تحب القليل

فقال : هذا والله الديباج الخُسْروانى !! لمن تنشدنى ؟ فقلت إنهما لليلتهما ! فقال : لا جرم والله إن أثر التكلف فيهما ظاهر . وفى رواية أنه قال : أفسدته أفسدته !!

أما إن التوليد فيه لبين.وهذا جور بغيض مرذول غير مقبول!!

وروىعن ابن الأعرابى فى أبيات لأبى تمام مثلُ هذا. وله نظائر مشهورة تحكى عن الأصمعى !! زعم الأصمعى. أن العرب لا تروى شعر أبى دؤاد وعدى بن زيد.لأن ألفاظهما ليست بنجدية.

وكان معاوية ﷺ يفضل عديا على جماعة من الشعراء . وسئل الحطيئة. من أشعر الناس؟ فقال الذى يقول وأنشد لأبى دؤاد :

لا أعد الأقتار عدما ولكن ∴ فَقْدُ من قد رزءته الأعدام
من رجال من الأقارب ماتوا ∴ من حُذَاقٍ هم الرؤوس الكرام
فيهم للملاينين أناةٌ ∴ وعُرام إذا يرادُ عُرام

وحذاق رهط أبى داود الأيادى . والعرام الشراسة والمعنى واضح !!

وبعض هؤلاء قد يجنح إلى الأنصاف أحيانا ، قال جماعة من أصحاب أبى رياش القيسى اللغوى البصرى . وكان دائما يكره جماعة من المحدثين وبصفة خاصة أبا تمام والبحترى . حتى قلت نسخ ديوانيهما بالبصرة فى وقته أنشد ذات يوم قول البحترى :

نظرت إلى طَدَان فقلت ليلى ∴ هناك وأين ليلى من طَدَانِ
ودون مزارها إيجاف شهر ∴ وسبع للمطايا أو ثمانِ

وطدان موضع بادية . والأيجاف نوع من السير . والشاعر يتحسر على بعدها عنه بحيث صارت المسافة بينهما سبعة وثلاثين يوما بالمطايا . يقول :

ولما غَرَّبَتْ أعراف سلمى ∴ لهن وشَرَّقَتْ قنن القنانِ
تصوبت البلاد بنا إليكم ∴ وغنى بالأياب الحاديان

فقال : أحسن والله. من هذا البدوى المطبوع ؟ فقيل له : إنها للوليد بن عبيد ! فقال أعِدْ فأعيدت. فرجع عن رأيه فيه !! وهذا مع الأسف هو التعصب والكيل بمكيالين بعينه!!

وهؤلاء فى نقدهم للمحدثين يجردونهم من كل فضيلة. وما يرونه حسنا فى شعرهم يرونه مسروقا من السابقين ! كأن توارد الخواطر عندهم ممتنع. واتفاق الهواجس غير ممكن.

فإن جاءت صور البيان والبديع فى شعرهم . عدوها متكلفة متعسفة. قليلة الرونق ضعيفة الطلاوة وإن جاءوا بالمطبوع. قالوا لفظ فارغ وكلام معسول . فإحسانهم يتأول وعيوبهم تتمحل وزلتهم تتضاعف. وعذرهم يكذب .

يقول القاضى الجرجانى رحمه الله تعالى : وهؤلاء لا تشغلن نفسك بهم ما دمت تنظر بين المتنبى وأهل عصره [1] فإن لكل مقام مقالا. وهذا من القاضى رحمه الله تعالى مرة أخرى بالغ حد الروعة والأعجاب! إن أحد القدامى أو من المحدثين لا تخلوا أشعارهم من الشوائب ولا تصفو من كدر أو معاب وأبو الطيب المتنبى واحد من هؤلاء وشعره رائع . ولكنه لا يخلو من الردىء . فكيف يخص بالظلم من بين الشعراء.؟ وكل سيئة له بجانبها عشر حسنات أو أكثر والله تعالى يقول : ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ .

وبعض المبغضين للمتنبى فضلو عليه ابن الرومى زورًا مع أن محاسنه قليلة بحيث ينتظر السامعون متى تنتهى القصيدة بشغف. والعكس تماما مع قصائد المتنبى ففى قصائده أبيات تختار . ومعان تستفاد تروق وتعذب وفيها إبداع دال على الفطنة والذكاء. والغزارة والاقتدار.

اختلاف شعر أبى نواس :

لو تأملت شعر أبى نواس مثلا ووازنت بين انحطاطه وارتفاعه لعظمت من قدر المتنبى ما استصغرت . ولأكبر من شأنه ما استحقرت. مع أن الحسن بن هانئ قد شهد له بالتقدم تخلف وأبو عبيد.

---

(١) الوساطة ج ٥٢ .

والأصمعى وفسر ديوانه ابن السكيت ومن جيد شعره قوله فى مدح الأمين :

يا ناق لا تسأمى أو تبلغى ملكا ∴ تقبيل راحته والركن سيان
متى تحطى إليه الرحل سالمة ∴ تستجمعى الخلق فى تمثال إنسان

وقوله :

إذا نحن أثنينا عليك بصالح ∴ فأنت كما نثنى وفوق الذى نثنى
وإن جرت الألفاظ منا بمدحة ∴ لغيرك إنسانًا فأنت الذى نعنى

ومن جيد شعره لفظا لا معنى قوله فى فجوره وإصراره عل الخمر :

قالوا كبرت فقلت ما كبرت يدى ∴ عن أن تخب إلى فمى بالكاس
وإذا عددت سنىَّ كم هى لم أجد ∴ للشيب عذرا فى النزول براسى

ومن جمعه بين الأفكار الرديئة فى ألفاظ قشيبة وإعلان عن عبوديته للمرأة وللشهوات بصفة عامة قوله :

بانوا وفيهم شموس دَجْنٍ ∴ تُنْعِلُ أقدامَها القرونُ
تعوم أعجازهن عومًا ∴ وتنثنى فوقها المتون

ولكن القاضى عليا الجرجانى رحمه الله لا يهمه رداءة المعنى وإنما ينظر إلى الصورة الفنية فى الشعر بغض النظر عن معناها والصورة الفنية هنا حسنة حقا. ولهذا يقول صاحب الوساطة: ومن سلك هذا المسلك من شعره فقد صافح السماء وتناول النجوم . فى سبكه وحبكه . ولكن الحق يقتضى مراعاة جانب المعنى أيضًا . وإلا فشعر الفساد والإفساد لا خير فيه !!

فإما قبيح شعره فكقوله فى مدح الأمين أيضا : الذى يشبه فيه

الندى بالعصا يقول .

فعصـــا نـــداه بـــرا حتـــى ∴ أعلـــو بهـــا الأفـــلاس قرعـــا
وعلـــىّ ســـور مـــانع ∴ مـــن جـــوده إن خفـــت لســـعا
فلَـــو انّ دهـــرًا رابنـــى ∴ لصـــفعته بـــالكف صـــفعا

وقوله :

أيـــا قمـــر الـــدار ∴ ويـــا مســـكة عطـــار
ويـــا كعبـــين مـــن عـــاج ∴ ويـــا غـــرّة دينـــار
ويـــا نـــردًا لفتيـــان ∴ ويـــا لعبـــة أبكـــار
ويـــا مســـواك جَمَّـــاشٍ ∴ ويـــا طنبورشـــطَّار

والجماش المتعرض للنساء . والشطار الخليع.

إن أقبح الناس فى الدنيا والآخرة من حَسَّن للناس شيئا قبحه الله تعالى. وهذا أبو نواس القبيح السفيه يعلم أن الله تعالى قد اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بان لهم الجنة . وأن الله تعالى قد رغب فى الجهاد وفى الحج وفى العمرة. ولكن الشقى المسكين يعارض ذلك كله. اسمع إليه فى قبح لفظه ومعناه يقول له الويل :

أنـــا مـــالى وللربـــا ∴ ط وللغـــزو والفـــدا
لســـت ممـــن يطـــوف فـــى ∴ عرفـــات ولا منـــى
المـــرد فـــى الـــديا ∴ ر وفـــى المـــدن والقـــرى
فـــإذا مـــا تمنعـــوا ∴ وعصـــوا أبـــذل الرشـــا

ولجهله وزندقة وكفره ظن أن الطواف فى منى وعرفات. والصواب أن الطواف حول الكعبة فقط . فهذا كله لأبى نواس سخيف اللفظ والنظم ساقط المعنى. يمل الناظر؟ ويضيع وقت الكاتب .

والحمد لله ليس لدى المتنبى شئ من هذا السقوط الذى يقف فيه أبو نواس فى صف واحد مع الشيطان الرجيم ومن اللحن فى شعر أبى نواس قوله :

فلما خشينا الإيباء ∴ من صحب وجلاس

وإنما هو الأباء. وله نظائر. وإن كان باب التأويل يتسع. ومذاهب الاحتيال فى النحو لا تضيق [١] .

ليس الكفر فنا :

أبو نواس مرتد عن الإسلام عميل للمجوس :

إن هذا الرجل الحقير البغيض دخل فى الإسلام نفاقًا وكُرْهًا وجبنًا وخرج منه طوعًا. يكره العرب والمسلمين ويهاجم بلاد العرب وينادى بالبول على اللبن الحليب. ويدعو إلى احتساء الخمور يقول خذله الله :

دع الألبان يشربها رجال ∴ رقيق العيش عندهم غريب
ولا تأخذ عن الأعراب لهوا ∴ ولا عيشا فعيشهم جديب
بلاد نبتها عشب وطلح ∴ وأكرم صيدها ضبع وذيب
دع الألبان تسفيها الجنوب ∴ وتبلى عهد جدتها الخطوب
إذا راب الحليب فبل عليه ∴ ولا تحرج فما فى ذاك حوب
فأكرم منه صافية شمول ∴ يطوف بكأسها ساق أديب
كأن هديرها فى الدن يحكى ∴ قراة القس قابله الصليب
∴

ولا يلبث الرجل أن يعلن عن كفرهالصريح باليوم الاخر والبعث والجزاء وأن القبر هو النهاية ولا حساب يقول الملعون :

---

(١) الوساطة ص ٦٢ .

يا عاذلى فى الدهر ذا هجر ∴ لا قدر صح ولا جبر
ما صح عندى من جميع الذى ∴ يذكر إلا الموت والقبر
فاشرب على الدهر وأيامه ∴ فإنما يهلكنا الدهر

ومن دلائل كفره قوله :

باح لسانى بمضمر السر ∴ وذاك أنى أقول بالدهر
بين رياض السرور لى شيع ∴ كافرة بالحساب والحشر
موقنة بالممات جاحدة ∴ لما رووا من ضغطة القبر
وليس بعد الممات منقلب ∴ وإنما الموت بيضة العَقْرِ

وبيضة العقر أخر بيضة تبيضها الدجاجة إذا هرمت . فهو يكفر باليوم الآخر جملة وتفصيلا !!

ومن شواهد ردته عن الإسلام قوله :

أأترك لذة الصهباء عمدًا ∴ لما وعدوك من لبن وخمر
حياة ثم موت ثم بعث ∴ حديث خرافة يا أم عمرو

وقوله :

ورأيت إيثار اللذاذة والهوى ∴ وتمتعا من طيب هذى الدار
أحرى وأحزم من تنظر آجل ∴ ظنى به رجم من الأخبار
إنى بعاجل ما ترين موكل ∴ وسواه إرجاف من الآثار
ما جاءنا أحد يخبر أنه ∴ فى جنة مذ مات أو فى النار

فلم لم ينكر حساد المتنبى مثل هذا الشعر وكان أولى منهم بالجهاد ورد الكفر والفساد !! وفى خاتمته أقاويل وأقاويل !!

والمؤسف أن العلامة القاضى الجرجانى لا يرى الكفر عارًا على الشعر. ولا يرى سوء الاعتقاد سببا لتأخر الشاعر. ونحن لا نقبل قوله

هذا أبدًا .

ونوصى بعدم تدريس كفر أبى نواس وفحشه للناشئة الصغار.

أما صاحب الوساطة فيقول إن الدين غير الشعر. ونحن نقول أن شعر المسلمين يجب أن يكون فى تأييد الإسلام والمسلمين. لا فى تقويض بنيان الإسلام. وكفانا إسفافًا. بإضفاء صفة الفن على الكفر وعلى التهتكُ والرذيلة ونعوذ بالله من فتنة المحيا والممات.

شعر أبى تمام بين الفصاحة والغرابة

يهتم صاحب الوساطة بإظهار الاختلاف والتفاوت فى أشعار الفحول فبينما ترى للواحد منهم قولا به قرع السماك . فإذا بك ترى له قولا آخر قد هبط به إلى الحضيض. فكل منهم يرتفع ويهبط ويقرب ويبعد وليس المتنبى مع كثرة إحسانه إلا واحدًا من هؤلاء.

وخذ شاهدًا على ما نقول الشاعر العباسى أبا تمام فمن عيون شعره قوله :

ومن لم يسلّم للنوائب أصبحت ∴ خلائقه طُرًّا عليه نوائبا
وقد يكْهَمُ السيفُ المسمى منيةً ∴ وقد يرجع المرء المظفر خائبا
فآفة ذا ألا يصادف مضربا ∴ وآفة ذا ألا يصادف ضاربًا

ويكهم بمعنى لا يقطع . وهو يدعو إلى الصبر. وإلاَّ ضاق المرء بنفسه! ولكل عالم هفوة . ولكل سيف نبوة ! والسيف وشجاعة القلب كل منهما بحاجة إلى الآخر. وفى الحق فإن هذا من عيون الكلام.

ويقول :

ذو الود منى وذو القربى بمنزلةً ∴ وإخوتى أسوة عندى وإخوانى
فى دهرى الأول المنسوب أعرفهم ∴ فكيف أنكرهم فى دهرى الثانى

عصابة جاورت آدابهم أدبـــى ∴ فهم إن فرقوا فـــى الأرض جيرانـــى

إنه يسوى بين أصدقائه وإخوته ويشير إلى أن الأرواح تتعـــارف فى عالم الذر . وكأنه يشير إلى قوله ﷺ : " الأرواح جنود مجندة. مـــا تعارف منها ائتلف. وما تناكر منها اختلف!! " .

ويقول :

وما اشتبهت طريق المجد إلا ∴ هداك لقبلـــة المعـــروف هـــادى
وما ســـافرت فىالآفـــاق إلا ∴ ومن جـــدواك راحلتـــى وزادى
مقيم الظن عنـــدك والأمـــانى ∴ وإن قلقت ركـــابى فـــى الـــبلاد

أرأيت كيف يترقى أبو تمام فى هذه الدرج العالية ويتصرف هذا التصرف العجيب فهو ينسب كل شئ عنده إلى معروف ممدوحه. وهذا وفاء رائع ومحمود.

ولكنه سرعان ما ينحط إلى الحضيض ويلصق بـــالتراب حـــين يقول:

أأترك حاجتى غرض التوانى ∴ وأنـــت الـــدلو فيهـــا والرشـــاء

فمن ذا الذى يقبل أن يشبه بالدلو أو بالرشاء. ومن يقبل أن يشبه بالمحراث. تأمل قوله :

ضاحى المحيَّا للهجير وللقنـــا ∴ تحت العجـــاج تخالـــه محراثـــا

والضاحى البارز والمحيا الوجه. والهجير شـــدة الحـــر. والقنـــا الرماح. والعجاج الغبار. وتخاله تظنه .

وقوله :

وتشقىالحرب منه حين تغلى ∴ مَرَاجِلهـــا بشـــيطان رجـــيم

ويقول :

ولّى ولم يُظْلَم وما ظُلِمَ امرؤ ∴ حث النجاء وخلقه التنين

فما هذا الذوق الذى يجعل الممدوح مرة دلوًا وتارة محراثا. ومرة رشاءً وأخرى تنينا وشيطانا رجيما. ولعله قال ذلك لما سمع قول جرير :

أيام يدعوننى [1] الشيطانَ من غزلى ∴ وهُنَّ يهوينني إذ كنت شيطانا

ومن ردئ قول أبى تمام :

كان الزمان بكم كلبا فقادكم ∴ بالسيف والدهرُ فيكم أشهرُ الحرم

تشبيهان بغيضان يطلبان الرذالة من كل جانب فكيف يشبه الزمان بالكب وبأشهر الحرم

وقوله :

سأشكر فرجة اللبب الرخى ∴ ولين أخادع الزمن الأبى

الفرجة السعة ، اللبب المنحر وفى الديوان الليت وهو صفحة العنق .

وقوله :

فضربت الشتاء فى أخدعيه ∴ ضربةً غادرته عَوْدًا ركوبا

والعود المسن من الإبل . وفى الديوان قَوْدًا .

ولكنه أحسن فى قوله :

وما هو إلا الوحى أو حد مرهف ∴ تميل ظباه أَخْدَعَىْ كل مائل

---

(١) فعل مضارع متصل بنون النسوة . والمراد أن النسوة يسمينه الشيطان ولا يهوين شابا أوان شيطنته..

ومن رداءة النسج الشعرى قوله :

ذهبت بمذهبه السماحة فالتوت ∴ فيه الظنون أَمَـذْهب أم مُـذْهب

والمعنى : أمذهب له فى الجود . أم ضاع عقله من كثرة تلبيتـه لحاجات الناس.

وقوله :

والمجد لا يرضى بأن ترضى بأن ∴ يرضى المؤمل منك إلا بالرضـا

وقد سمعه إسحاق الموصلى ينشد هذا البيت فقال له : يا هذا لقـد شققت على نفسك إن الشعر لأقرب مما تظن. ويقول صاحب الوساطة: إنه أظهر التعجرف وتشبهه بالبدو ونسى أنه حضرى متأدب وقـروى متكلف جاءك بمثل قوله :

قد قلت لما اطلخم الأمر وانبعثـت ∴ عشواءُ تاليةً غبَّسا دهاريسَـا[1].

أطلخم أظلم. والعشواء ضعيفة البصر. والغبس جمع غبساء وهى المظلمة. والدهاريس الدواهى والعياذ بالله.

ومن ردئ شعره أيضًا قوله :

وحـادث أخـرق دَاوَيْتُـهُ ∴ رَدَاعَـةً داهيـةٌ دردبـيس

رَدَاعةً من ردع إذا أوجع . والدردبيس الداهية الشديدة !!

وقوله :

ومُزَحْزحَاتى عن ذراك عوائق ∴ أصحرن بى لِلْعَنْقَفِيـرِ المؤبـد

أصحرن قصدن الصحراء. العنقفير. الداهية والمؤبد الدائم.

وقوله :

مقابل فى ذرى الأنواء منصبه ∴ عيصا فعيصا وقُدمُوسَا فَقُدمُوسًا

---

(١) الوساطة ص ٧٢ .

الذرى الأعالى والأذواء ملوك اليمن. منهم ذو يزن وذو رعين والمنصب المرتبة العيص الأصل . والأعياص من قريش أولاد أمية بن عبد شمس الأكبر. والقدموس الملك العظيم وهكذا يتبدى أبو تمام ! ولو لزم ذلك واستمر عليه دينا وعادة. واتخذه إماماً وقبلة لقلنا بدوى جرى على طبعه أو متحضر حن إلى أصله. لكنه يعرض عنه صفحا ويتناساه جملة فى بعض الأحيان. ومهما يكن من شئ فإن تكلف البداوة فى المفردات أو فى التراكيب أو فى الطباع. شئ مرذول وغير مقبول!!

وتأمل قوله :

إن البشاشة والندى خير لهم ∴ من عفة جمست عليك جموسا
ولو أن أسباب العفاف بلا تقى ∴ نفعت لقد نفعت إذن إبليسا

أهذا مديح أم هجاء. إنه أراد أن يمدح فأخطأ. فهل كان يزيد على أن يذم عفته. ويصفها بالجموس والجمود. وهما من صفات البرد والثقل. ثم يضرب له إبليس مثلا. أيقبل هذا فى مقام المديح.؟

وكقوله :

شكوت إلى الزمان نحول جسمى ∴ فأرشدنى إلى عبد الحميد

وإنما يرشد فى نحول الجسم إلى الأطباء. فأما الرؤساء والممدوحون فإنما يُلتمس عندهم صلاح الحال.

وقوله :

تكاد عطاياه يجن جنونها ∴ إذا لم يُعَوِّذْهَا بنعْمَة طالب

والتعويذ الرقية يرقى بها المريض. ولماذا يحوج عطاياه إلى الجنون ويلتمس لها الرقى . هلا فك أسرها وقدم خلاصها. ولم ينتظر

بها نعمة الطالب.

وقد جعل الدهر دهرا حين قال :

تحملت ما لو حُمِّل الدهر شطره ∴ لفكر دهرًا أى عبأية أثقل

ووصف البرد بالرقة وإنما يوصف بالصفاقة والدقة يقول :

رقيق حواشى الحلم لو أن حلمه ∴ يكفيك ما ماريت فى أنه برد

وقد أقام الرقة مقام اللطف والرشاقة فى موضع آخر فقال:

لك قَدُّ أرق من أن يحاكى ∴ بقضيب فىالنعت أو بكثيب

والقد لا يوصف بالرقة. والقضيب والكثيب لا يصلحان فى هذا المقام يقول بحق صاحب الوساطة : وأخيرا يقول صاحب الوساطة :

وهفوات أبى تمام كثيرة جدًا وما أشرنا إلا إلى نماذج قليلة جدا وما تركناه أضعاف ما اثبتناه ومع هذا فقد كان حظه من الحسد أقل بكثير من خط المتنبى المحسود المحقود .

المتنبى

قبل أن يبدأ القاضى الجرجانى حديثه عن شعر المتنبى تحدث عن أبى تمام وأبى نواس كما سبق لأنهما فى نظره من أئمة المطبوعين على قرض الشعر : بل هما إماما أهل الصنعة . ومع فضلهما لم يخل أى منهما من زلل وإحسانهما لم يخل من كدر. والمنصف له فيهما عبرة وتصنع. ومن لج يقال له ما قال عز وجل: ﴿ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

فلو وجد فى شعر المتنبى شئ من اللحن والغلط . أوالاختلال والإحالة. أو التعسف والغثاثة أو الضعف والركاكة أو التعدى فى الاستعارة . وكل هذا لا يسلم منه أحد من الشعراء. وهو عيب عند الجميع !! .

ولكن لا يجوز إسقاط القصيدة من أجل بيت. ولا نفى الديوان من أجل قصيدة .

لقد عاب البلاغيون والنقاد بحق قول المتنبى :

ومن جاهل بى وهو يجهل جهله ∴ ويجهل علمى أنه بى جاهل

وقوله :

فقلقلت بالهم الذى قلقل الحشا ∴ قلاقل عيس كلهن قلاقل
غثاثة عيشى أن تغث كرامتى ∴ وليس بغث أن تغثَّ المآكل

وقوله :

ولست بدون يرتجى الغيث دونه ∴ ولا منتهى الجود الذى خلفَه خلفُ
ولا واحدًا فى ذا الورى من جماعة ∴ ولا البعض من كل ولكنك الضعف
ولا الضعف حتى يبلغ الضعف ضعفه ∴ ولا ضعفَ ضعفِ الضعف بل مثله ألف

وقوله فى رثاء والدة سيف الدولة :

وليست كالإناث ولا اللـواتى ∴ تعد لها القبـور مـن الحجـال
ولا من فى جنازتهـا تجـار يكونُ وَدَاعُهـا نفـض النعـال

فمثل هذا لا يقال فى رثاء أمهات الملوك. فمعروف أنهـن لسـن كنساء السوقة من الناس. وكقوله :

وربما يشـهد الطعـام معـى ∴ من لا يساوى الخبز الذى آكلـه

فهو يتهكم ببعض الآكلين معه من الجهلـة الـذين ألقـت بهـم العصبيات الجاهلية إلى الجلوس مع الفضلاء .

وقوله :

إنى على شغفى بما فى خمرها ∴ لأعف عمـا فـى سـراويلاتها

فالكلمة الأخيرة من البيت طويلـة وليسـت فصـيحة ومعناهـا مستهجن. وقوله :

قسا فالأسد تفزع مـن يديـه ∴ ورق فـنحن نفـزع أن يـذوبا

فصدر البيت مبالغة مقبولة . وعجزه أقـرب مـا يكـون إلـى السخرية!! وقوله :

أغركم طول الجيوش وعرضها ∴ علىّ شـروب للجيـوش أكـول
إذا كان بعض الناس سيفا لدولة ∴ ففى الناس بوقات لها وطبـول

وبوق تجمع على أبواق لا بوقات. ووصف الممدوح بأنه أكـول شروب للجيوش من قبيح الاستعارات !!

وقوله :

ولذا اسم أغطية العيون جفنهـا ∴ من أنها عمل السيوف عوامـل

وقوله :

الطيب أنت إذا أصابك طيبه ∴ والماء أنت إذا اغتسلت الغاسل

فقد تضاربت الآراء فى بيان المراد من البيت الثانى. فضلا عن التعقيد اللفظى فىالبيتين !!

وقوله :

خف الله واسترذا الجمال ببرقع ∴ فإن لحت حاضت فى الخدور العواتق

ولما أنكر عليه (حاضت) غيره إلى ذابت.

فقد جمع فى هذه الأبيات وأشباهها بين الثقل والوخامة والبرود والغثاثة. فأبعد الاستعارة وعوض اللفظ وعقد الكلام. وأساء الترتيب وبالغ فى التكلف حتى خرج إلى السخف فى بعض وإلى الإحالة فى بعض .

ومن السخف فىالشعر والخطأ فى المعانى ادعاؤه أن ممدوحه اكبر من أن يهنأ بمكان فى الأرض أو فى السماء !! ومن ذا الذى لا يهنأ بنجاته من النار ودخوله الجنة إن الله تعالى قد أخبر عن الفوز فى السماء . بأنه الفوز العظيم وهنأ أهل الجنة بقوله تعالى : ﴿ **كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأيَّامِ الْخَالِيَةِ** ﴾ فمن الخطأ الجسيم أن يقول الشاعر :

أنت أعلى محلاً من أن تُهَنَّى ∴ بمكان فىالأرض أو فى السماء
ولك الناس والبلاد وما يسْـ رَحُ بين الغبراء والخضراء

وفى البيت الثانى غلو غير مقبول لأن الناس والبلاد وما يسرح بين الغبراء والخضراء . كل ذلك لا يملكه إلا الله عز وجل.

ثم يقول فى كافور :

يفضح الشمس كلما ذرت الشمـ ∴ س بشمس منيرة سوداء
إنما الجلد ملبس وابيضاض الـ نفس خيرٌ من ابيضاض القباء

فما رآى الناس شمسا منيرة سوداء. هذه يمكن أن تكون فى نار جهنم لأنها سوداء مظلمة وليست منيرة ، فهذا القول تكلف تشمئز منه النفوس. وهجاء فى صورة مديح .

التعقيد فى شعره :

إن اللفظ المعقد والترتيب المتعسف لغير معنى بديع يستحق الجهد المبذول فى استخراجه. تتأذى النفس بسماعه كقوله :

وفاؤكما كالربع أشجاه طاسمه ∴ بأن تسعدا والدمع أشفاه ساجمه

الطاسم الدارس. والساجم السائل. وإن من يرى هذا النظم فى أول الأمر يظن وراءه كنزا من الحكمة حتى إذا سهر الليالى. باحثا ومنقبا عن المعنى عرف أن المعنى: ياعاذلى وفاؤكما بأن تسعدانى إذا درس حزنى. وكلما ازداد تدارسًا ازددت له شجوا. كما أن الربع أحزنه دارسه.

وهذا معنى عامى. لا يستحق أن يهلهل له النسج. ويفسد النظم . ويفصل فيه بين الباء ومتعلقها بخبر المبتدأ قبل تمامه. ويقدم ويؤخر بدون داعٍ . ويُعَمَّى اللفظ ويعوص المعنى.

ولو قال : وفاؤكما بأن تسعدا كالربع أشجاه طاسمه . لظهر هذا المعنى المطمور تحت اللفظ المعقد.

فأما قوله : والدمع أشفاه ساجمه. فخطاب مستأنف. وكأنه قال: وفاؤكما والربع أشجاه ما طسم. والدمع أشفاه ما سجم .

وكذلك قوله :

أحادٌ أم سداسٌ فى أُحادٍ ∴ لِيُبْلَتُنَا المنوطةُ بالتناد

فقد صغر الليلة. المعلقة بالقيامة . فهى لطولها بمنزلة ليالى الزمان كله. وهى ليال كان كلا منها ست ليال. وقيل إن سداس غير مروية عن العرب والذى روى أحَاد إلى رُبَاع ثم عُشَار وهذه لا يتجاوز بها السماع [1] وأقام آحاد وسداس مقام واحد وستة .

والعرب يقولون جاء القوم أحاد. ومثنى. وثلاث. أى واحد واحدا. واثنين اثنين وثلاثة ثلاثة. قال تعالى : ﴿ **قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ...**﴾ الآية أى اثنين اثنين وواحدًا واحدًا . وقال تعالى : ﴿ **فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ**﴾ على التفسير السابق .

ثم إنه صغر الليلة ووصفها بالطول ووصلها بالتناد. وقصده أن يقول : أواحدة ليلتنا هذه أم ست ليال ؟ وهل يجوز أن يوضع هذا فى بداية القصيدة ؟ ولم لم يذكر عُشَار بدل سداس وهو أكثر وإن أراد الأسبوع فلم ترك السابعة. ولم يقتصر على الأسبوع وهو يريد المبالغة فى الطول. ومهما يكن من شئ فهذا غث مستبرد. ومتكلف متعسف. ولكنه لا ينفى شاعرية المتنبى التى لا تبارى.

تذوق الشعر :

لا بد فى الشعر من استشهاد القرائح الصافية والطبائع السليمة والشعر لا يحبب إلى النفس بالجدل والمقايسة وإنما يعطفها عليه القبول والطلاوة . والرونق والحلاوة. وقد يكون الشئ متقنا محكما ولا يكون

---

(١) الوساطة ص ٩٩ .

حلوا مقبولاً. ويكون جيدًا وثيقا وإن لم يكن لطيفا رشيقًا. ولكل صناعة أهل يرجع إليهم فى خصائصها . وفيما عيب من شعر المتنبى أبيات غلب عليها الضعف وظهر فيها التعسف. وخانه فيها السبك فساء ترتيبه واختل نظمه .

ومنها ما حل عليه النعيق فخرج إلى الغثاثة – والبرود– ولكن لا ينبغى للناقد المنصف أن يتعجل السيئة قبل الحسنة. وألا يقدم السخط على الرحمة. ولا ينبغى أن ينعى على أبى الطيب من اجل لفظة لم يساعده فيها طبعه. ومن أجلها تنسى محاسنه وقد ملأت الأسماع. الأبصار.

من محاسن شعر المتنبى :

محاسن شعر المتنبى كثيرة فهو أعجوبة الدنيا وشاغل الناس ومن محاسنه قوله :

وقيدت نفسى فى ذراك محبةً ∴ ومن وجد الإحسان قيدا تقيدا

وقوله :

وإذا ما خلا الجبان بأرض ∴ طلب الطعن وحده والنزالا

وقوله :

إنما أنفس الأنيس سباع ∴ يتفارسن جهرةً واغتيالا
من أطاق التماس شئ غلابا ∴ واغتصابا لم يلتمسه سؤالا

فالإنسان عبد الإحسان . والجبان لا يحارب إلا فى العراء. والناس فى عهده كالذئاب والقوى يأخذ حقه عنوة !!

تأمل قوله :

إذا رأيت نيوبَ الليث بارزةً ∴ فلا تظنَّنَّ أن الليث يبتسم

وقوله :

إن كان سرّكم ما قال حاسدنا ∴ فما لجرح إذا أرضاكمُ ألَمُ
وبيننا لو رعيتم ذاك معرفة ∴ إن المعارف فىأهل النهى ذمم
ما أبعد العيب والنقصان عن شيمى ∴ أنا الثريا وذان الشيبُ والهرم
شر البلاد مكان لا صديق به ∴ وشر ما يكسب الإنسان ما يصمُ

لا تنخدع بأنياب الأسد والشاعر يتحمل الآلام فى سبيل رضا ممدوحه. والمعارف رحم. والشاعر يرى من العيب والنقصان – وشر البلاد من لا ترى فيها صديقا.

وقوله :

وكل يرى طرق الشجاعة والندى ∴ ولكن طبع النفس للنفس قائد
نهبت من العمار ما لو حويته ∴ لهنئت الدنيا بأنك خالد

إنه ما بالطبع لا يتخلف – والمدوح الشجاع. لو أضيف إليه أعمار قتلاه لما أدركه الموت .

وقوله :

من صحب الدنيا طويلا تقلبت ∴ على عينيه حتى يرى صدقها كذبا

وقوله :

أرى كلنا يبغىالحياة بسعيه ∴ حريصا عليها مستهاما بها صبا
فحب الجبان النفس أورده التقى ∴ وحب الشجاع النفس أورده الحربا
ويختلف الرزقان والفعل واحد ∴ إلى أن يرى إحسان هذا لذا ذنبا

وأخذ عليه الإكثار من اسم الإشارة. ولكن رأيه فى الدينا صواب وحكمة. ولكن رده مشاعر الشجاع والجبان إلى حب الدنيا غير مطرد لأن مشاعر المجاهدين الصادقين غير مشاعر المرائين. والعياذ بالله تعالى.

وقوله :

ومن كنت بحرا له يـا علـى ∴ لـم يقبـل الـدر إلا كبـارا
وعندى لك الشُّـرَّدُ السـائرا ∴ ت لا يختصصن مـن الأرض دارا
وكُنَّ إذا سرن عـن مقـولى ∴ وثبن الجبال وخضْـن البحـارا

يشبه عليا سيف الدولة بالبحر - ويشيد بشعره - ويرى أنه سريع الذيوع والانتشار إلى ما وراء الجبال والبحار وهذا صحيح !!

وقوله :

يجشمك الزمان هوى وحبـا ∴ وقد يؤذى من المقـة الحبيـب
وكيف تعللـك الـدنيا بشـئ ∴ وأنـت لعلـة الـدنيا طبيـب

المتنبى شاعر صادق فى مديح سيف الدولة. والصدق الشـعورى متبادل بينهما. والمتنبى يراه طبيبا لكل مصائب الدنيا فكيـف يمـرض

ومن مبالغاته المقبولة قوله :

طلبتهم على الأمـواه حتـى ∴ تخـوف أن تفتشـه السـحاب
وتسأل عنهم الفلـوات حتـى ∴ أجابك بعضـها وهـم الجـواب
إذا ما سرت فى آثـار قـوم ∴ تخاذلـت الجمـاجم والرقـاب

فهو يرى اتساع نفوذ سيف الدولة ووصوله إلـى البـر والبحـر والجو. وأن أعداءه ستتساقط عنهم الجماجم والرقاب.

وقوله :

وقفت وما فى الموت شك لواقف ∴ كانك فى جفن الردى وهـو نـائم
تمر بك الأبطال كلمى هزيمة ∴ ووجهك وضاح وثغـرك باسـم

البيت الثانى كناية عن النصر. والأول تمثيلـى بـالغ الروعـة والإعجاب يفيد لثبات الممدوح فى وقت تيقن الموت.

وقوله :

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه ∴ وصدق ما يعتاده من توهم
وعادى محبيه بقول عُداته ∴ وأصبح فى ليل من الشك مظلم
فأحسن وجه فى الورى وجه محسن ∴ وأيمن كف فيهم كف منعم

إن سوء الظن وليد سوء الفعل وسوء الظن قاتل. ولا يرى أحسن من وجه الكريم ويده .

وقوله :

وأظلم أهل الظلم بات حاسدًا ∴ لمن بات فى نعمائه يتقلب

إنه الجحود والكنود ورد الحسنة بالسيئة ولا يفعل هذا إلا لئيم.

وقوله :

وهل ينفع الجبن الكثير التفافه ∴ على غير منصور وغير معان

هذا يبين أهمية قائد الجيش وقيمة تدبيره .

وكقوله :

ولما صار ود الناس خبا ∴ جزيت على ابتسام بابتسام
وصرت أشك فيمن أصطفيه ∴ لعلمى أنه بعض الأنام
أرى الأجداد تغلبها كثيرا ∴ على الأولاد أخلاق اللئام

والخب المكر. والود الصداقة - والمتنبى يشير إلى تفشى النفاق وإلى شكه فىأقرب الناس إليه . وأن لؤم الناس موروث عريق. وتأمل قوله فى وصف الحمى :

وزائرتى كأن بها حياءً ∴ فليس تزور إلا فى الظلام
بذلت لها المطارف والحشايا ∴ فعافتها وباتت فى عظامى

يضيق الجلد عن نفسى وعنها ∴ فتوسعه بانواع السقام
إذا ما فارقتنى غسلتنى ∴ كأنا عاكفان على حرام
كأن الصبح يطردها فتجرى ∴ مدامعها بأربعة سِجَامِ
أراقب وقتها من غير شوق ∴ مراقبة المشوق المستهام
ويصدق وعدها والصدق شر ∴ إذا ألقاك فى الكُرَبِ العِظامِ

يقول إن الحمى لا تزوره إلا ليلاً. وهى لا تنشط إلاَّ فى وقت نشاطها فى الليل. وأنه طلب منها المبيت فى الفرش والبسط ولكنها باتت فى عظامه. وإذا ضاق بها جلده وسعته بالعلل والأسقام. وأنها إذا فارقته غسلت جسمه بالعرق ويظل العرق متقاطرا من جسمه حتى الصباح الذى جعله طاردا لها فتبكى وكأن عرقه من دموعها. وهو يراقب وقتها كارها لها. مشتاقا إلى الشفاء وأنى هو ! وهى لا تغيب عن وقتها الليلى بل تحضر كل ليلة وبالها من كرب عظيم والعياذ بالله تعالى .

ومن عيون الشعر أيضا قوله فى هذه القصيدة :

وفارقت الحبيب بلا وداع ∴ وودعت البلاد بلا سلام
يقول لى الطبيب أكلت شيئا ∴ وداؤك فى شرابك والطعام
وما فى طبه أنى جواد ∴ أضر بجسمه طول الجَمَامِ
تعوَّد أن يغبر فى السرايا ∴ ويدخل من قتام فى قتام
فأمسك لا يطال له فيرعى ∴ ولا هو فى العليق ولا اللجام
فإن أمرض فما مرض اصطبارى ∴ وإن أُحمَمْ فما حُمَّ اعتزامى
وإن أسلم فما أبقى ولكن ∴ سلمت من الحمام إلى الجمَامِ

الجمام . الراحة. والقتام. الغبار.

ويقول إنه فارقه أحبته بلا وداع وودع بلاده وداعا قلبيًا. وقال له الطبيب إنه أكل شيئا أضرَّ به .

ومعظم الأمراض سببها المطاعم والمشارب يقول ﷺ : " المعدة بيت الداء " ويقول عليه السلام : " نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع " . والمتنبى يقول إن جوده (يقصد نفسه) وطول جنوحه للراحة قد أضره ويصف نفسه بالشجاعة وشن الغارات . ولكنه حُبس فجأة عن المشاركة فى المعارك التى لم يدع إليها.

ويقول : إنه على الرغم من مرضه وحماه فصبره وعزيمته قويان والحمد لله تعالى .

وإن كتبت له السلامة فكأنما نجا من الموت إلى الموت. والموت نهاية كل حى. ويقول صاحب الوساطة : وهذه القصيدة كلها مختارة . لا يعلم لأحد فى معناها مثلها. والأبيات التى وصف فيها الحمى أفراد. قد اخترع شاعرنا أكثر معانيها. وسهل فى ألفاظها. فجاءت مطبوعة مصنوعة. وهذا القسم من الشعر هو المطمع المؤيس !!

وقوله :

حتى رجعت وأقلامى قوائل لى ∴ المجدُ للسيف ليس المجدُ للقلم
اكتب بنا بعد الكتاب به ∴ فإنما نحن للأسياف كالخدم
من اقتضى بسوى الهندى حاجته ∴ أجاب كل سؤالَ عن هلِ بِلِمِ
ولم تزل قلة الأنصاف قاطعةً ∴ بين الرجال وإن كانوا ذوى رحمِ
ولا تَشَكَّ إلى خلقٍ فتشمته ∴ شكوى الجريح إلى الغربان والرخم

إن المتنبى من أعاجيب الزمان . لقد رأى على مر الزمن تضرع القلم . وتضرع كل ضعيف ويشبه الناس بخدم السيوف ويدعو إلى الكتابة بالسيف لا بالقلم. ومن حكمه قوله. من طلب حقه بغير القوة

رفضت جميع أسئلته ولم يحصل على شئ. والظلم شائع فى الناس ولو كانوا ذوى أرحام. ثم ينصح المصاب بألا يشكو إلى أحد سوى الله تعالى فإن شكا إلى الناس نهشوه كما تنهش الغربان والرخم البعير إذا جرح ظهره فكشفه لها ويا له من رحيم ويا له من عارف بطباع اللئام.

وقوله :

لعل الله يجعله رحيلا ∴ يعين على الإقامة فى ذَرَاكا
ولو أنى استطعت خفضت طرفى ∴ فلم أبصر به حتى أراكا

فالرحيل من أجل المصلحة يعين على الإقامة حيث تُحَبَّ الإقامة. ويقول للممدوح : لو استطعت لخفضت طرفى فلا أبصر به أحدًا ولا شيئا قبل أن أراك .

ومن عيون الشعر قوله :

أعيذكم من صروف دهركم ∴ فإنه فى الكرام مُتَّهَمُ

فإنه يسأل الله للمدوحين أن يعيذهم من غوائل الدهر. فإنه يقصد الكرام بمصائبه دائما.

وقوله يمدح على بن منصور الحاجب :

ملك سنانُ قناته وبناته ∴ يتباريان دمًا وعُرْفًا ساكبا
إن تلقه لا تلق إلا جحفلا ∴ أو قسطلا أو طاعنا أو ضاربا
وإذا نظرت إلى السهول رأيتها ∴ تحت الجبال فوارسًا وجنائبا
وعجاجة ترك الحديد سوادها ∴ زِنْجًا تبسم أو قَذَالاً شائبا
كالبحر يقذف للقريب جواهرا ∴ جودًا ويبعث للبعيد سحائبا

يقول إن سلاحه ويده يتباريان جودا وشجاعة. فإن تلق هذا الرجل لا تلقه إلا فى ميادين الحرب حيث الغبار والجيوش وجيوشه

تملأ السهل والجبل. وسلاحهم كثير متراكم يشبه زنجيا تبسم أو شعرًا خالطه المشيب .لأن الجيش أغبر من كثرة القتام والسلاح يلمع فى هذه الغبرة . ولم يس وصف ممدوحه بالجود فقال إنه كالبحر يكرم القريب والبعيد فللقريب الجواهر . وللبعيد السحاب الممطر.

وقد وصف المتنبى بدر بن عمار بالإشراق والشجاعة وأن أعداءه إذا انسحبوا من أمام جنده عدوا ذلك عَمَلاً عظيما. وأنه يهاجم بخيول غاية فى السرعة كأنها تسبح فى الماء. وخطواتها منتهى بصرها. وقال إنه من قوم يهبون أعمارهم فداء للمبادئ والمثل . وكل كتيبة لا يقودها بدر بن عمار فهى غنيمة لعدوها. وكل بلدة لا يكون بها فهى عاطلة عن الحسن لأنه مصدره يقول :

أغر أعداؤه إذا سلموا ∴ بالهرب استكثروا الذى فعلوا
يُقْبِلُهُم وجه كل سابحة ∴ أَرْبَعُها قبل طرفها تصل
إنك من معشر إذا وهبوا ∴ ما دون أعمارهم فقد بخلوا
كتيبة لست ربها نفل ∴ وبلدة لست حليها عُطُلُ

وقد وصف المتنبى سيف الدولة فبالغ وغالى غلوا مقبولا فقال إنه لا يجارى ولا يعالى لأنه أعلى الناس ويحلف على أن الناس جميعا دونه. وأنه فوق الكواكب وسر قبوله ما يحمله من دعابة وطرافة وإلا فقد كان علوا بعيدا !

يقول :

سبقت السابقين فما تجارى ∴ وجاوزت العلو فما تُعَالى
وأقسم لو صلحت يمين شئ ∴ لما صلح العباد له شِمَالا
أقلب منك طرفى فى سماء ∴ وإن طلعت كواكبها خصالا

وقد وصف المتنبى شجاعة سيف الدولة فى قتله الأسد فقال إن سخاءه علم الزمان السخاء فجاد به ولن يجود بمثله .

أعدى الزمان سخاؤه فسخا به ∴ ولقد يكون بـه الزمـان بخـيلا

وقال فى وصف الأسد :

مـا قوبلـت عينـاه إلا ظننتـا ∴ تحت الدجى نار الفريـق حلـولا
يطأ الثرى مترفقا مـن تيهـه ∴ فكأنـه آس يجُـسُّ علـيلا
ألقى فريسته وبربـر دونهـا ∴ وقربـت قربـا خالـه تطفـيلا
أسد يرى عضويه فيك كليهما ∴ متنـا أزل وسـاعدًا مفتـولا
ما زال يجمع نفسه فى زوره ∴ حتى حسبت العـرض منـه الطـولا

هذا الأسد الذى قتله سيف الدولة . بريق عينيه كبريـق عيـون فريق من البشر. وهو يمشى واثقًا من بطشه بهدوء وكأنه طبيب يحاول معرفة المرض فى شخص عليل. وعندما شاهد سـيف الدولـة ألقـى فريسته واستعد للعراك .وشاهد بعينى رأسه متنك الحديدى وسـاعدك المفتول . فعرف أنه أسد يحارب أسدًا. وما زال يتجمـع فـى نفسـه استعدادًا للوثوب حتى تساوى عرضه مع طوله ومع ذلـك فإنـك قـد قتلته.

أمعفر الأسد الهزبر بسـوطه ∴ لمن ادخرت الصـارم المصـقولا

يقول صاحب الوساطة : ولولا أبيات البحترى فى هـذا المعنـى لعددت هذه من أفراد أبى الطيب . لكن البحترى قال يصف قتل الفـتح ابن خاقان أسدا عرض له :

غداة لقيت الليث والليث مُخْدَرُ ∴ يحـدد نابـا للقـاء ومخلبـا
إذا شاء غادى عانة أو غداعلى ∴ عقائل سرب أو تقـنص ربربـا

فلم أر ضرغامين أصدق منكما ∴ عراكا إذا الهيابة النكس كذَّبا
هزبرٌ مشى يبغى هزبرا وأغلبٌ ∴ من القوم يغشى باسل الوجه أغلبا
ادل بشغب ثم هالته صولةٌ ∴ رآك لها أمضى جنانا وأشغبا
حملت عليه السيف لا عزمك الثنى ∴ ولا يدك ارتدت ولا حدُّه نبا

يقول غداة التقيت مع الأسد فىعرينه. وهو أسد قادر على مهاجمة قطيع من الأبقار الوحشية أو حمر الوحش. وياعجبا لشجاعة كل منكما أنت والأسد كل منكما غالب لا يقهر. لقد صاح الأسد وزلزل زئيره الأفق ولكنه رأى أسدًا أثبت منه عند اللقاء فقتلته بسيفك وعزمك ومفتول عضلاتك.

وعن معرفته بالأشرار يقول : إن استعمال الجهل مع الظالمين حلم . ومن عرف الأشرار مثل معرفتى قتلهم تقتيلا يقول:

من الحلم أن تستعمل الجهل دونه ∴ إذا اتسعت فى الحلم طرق المظالم
ومن عرف الأيام معرفتى بها ∴ وبالناس روى رمحه غير راحم
فليس بمرحوم إذا ظفروا به ∴ ولا فى الردى الجارى عليهم بآثم

ومن صوره البيانية قوله :

ولولا احتقار الأسد شبهتهم بها ∴ ولكنها معدودة فىالبهائم

ومن تجارب أبى الطيب مع الناس عرف أن الجبناء يرون أن العجز والجبن عقل . يقول : وهذه من خداع الطبع الخسيس. ومن عاب قولا صحيحا فهو مريض العقل. يقول محمد بن عبيد الله بن طغج وقد غزا أنطاكية :

يرى الجبناء أن العجز عقل ∴ وتلك خديعة الطبع اللئيم
وكم من عائب قولا صحيحا ∴ وآفته من الفهم السقيم

ولكـــن تأخـــذ الآذان منـــه ∴ علـــى قـــدر القـــرائح والعلـــوم

ويتحدث عن نصيب كل حَيٍّ من الأكدار فيقول :

فقلت لكل حـــيٍّ يـــوم ســـوءٍ ∴ وإن حَرِصَ النفوس على الفـــلاح

ويتحدث عن ممدوحه سيف الدولة فيصفه بأنه استحق هذا اللقب بعد انتصاره على خصوم الإسلام والمسلمين . ويصفه بأنه درة تـــاج الخلافة وفص خاتمها وأشجع ولاتها. يقول :

إن الخليفة لم يسمك ســـيفها ∴ حتى ابتلاك فكنت عين الصـــارم
فإذا تتوج كنـــت درة تاجـــه ∴ وإذا تختم كنـــت فـــص الخـــاتم
وإذا انتضاك على العدا فى مَعْرَكٍ ∴ هلكوا وضـــاقت كفـــه بالغنـــائم

ومن حكمه قوله عن استحالة تغير الطبائع. فما تذل الطباع على الناقل.

ومن التصوير الأخاذ قصيدته فى رثاء ابن اسحق التنوخى. التى تعجب فيها من دفنه فى التراب وهو كوكب منير. ويتعجب أيضًا كيف يسير جبل رضوى على أيدى حملة النعش. ويصور صعقات مودعيـــه بصعقات موسى يوم دك به جبل الطور يقول :

ما كنت أحسب قبل دفنك فى الثـــرى ∴ أن الكواكـــب فى التـــراب تغـــور
ما كنت آمل قبل نعشك أن أرى ∴ رضوى على أيـــدى الرجـــال يســـير
خرجوا به ولكل بـــاك خلفـــه ∴ صعقات موسى يـــوم دك الطـــور

وإن تعجب فتأمل قصيدته فى رثاء والدة سيف الدولة ومـــا قـــال فيها من حكم نوادر. يقول : كل الناس عشقوا الدنيا وما أخذوا منها إلا نصيبهم فنصيبك من حبيبك قليل كنصيبك من الخيـــال وأنـــت نـــائم. ويقول: إنه تكاثرت عليه المصائب فتســـاقط بعضـــها علـــى بعـــض.

وضرب بعضها بعضًا. وأصبحت لا أبالى بها لكثرتها. وشر البلية ما يضحك.

ويقول هذه أول منيته فى أهل الجلال (والدة الأمير سيف الدولة) ثم يدعو لها بالرحمة. وإن دفنت اليوم فى التراب فقد دفنت قبل ذلك فى المثل العليا ويقول إن النساء لو كن مثلها لفضلت النساء على الرجال فما التذكير شرف للهلال على الشمس المؤنثة

ومن لم يعشق الدنيا قديمًا ∴ ولكن لا سبيل إلى الوصال
نصيبك فى حياتك من حبيب ∴ نصيبك فى منامك من خيال
رمانى الدهر بالأرْزَاء حتى ∴ فؤادى فى غشاء من نبال
فصرت إذا ما أصابتنى سهام ∴ تكسرت النصال على النصال
وهان فما أبالى بالرزايا ∴ لأنى ما انتفعت بأن أبالى
وهذا أول النعاين طرا ∴ لأول منية فى ذا الجلال
كأن الموت لم يفجع بنفس ∴ ولم يخطر لمخلوق ببال
صلاة الله خالقنا حَنُوطُ ∴ على الوجه المكفن بالجمال
على المدفون قبل الترب صونا ∴ وقبل اللحد فى كرم الخلال
ولو كان النساء كمثل هذى ∴ لفضلت النساء على الرجال
وما التأنيث لاسم الشمس عيب ∴ ولا التذكير فخر للهلال

ومن أعاجيب هذا الرجل الأعجوبة رثاؤه لأخت سيف الدولة (الصغرى) ويسليه بالكبرى التى يرى فيها أن القبر خير زوج لمن لم يتقدم لها كفء من الرجال. ويقول إن عماد الحياة الصحة والشباب ولا قيمة للحياة إلا بهما. أما الدنيا فغادرة تسترد ما تهب وليته ما كان .

وإذا لم تجد من الدنيا كفوًا ∴ ذات خدر أرادت الموت بعلاً

وإذا الشيخ قال أُفٍّ فما مـــ ∴ لَّ حيـاةً وإنمـا الضُـعْفُ مَـلاَّ
آلة العيش صـحة وشـباب ∴ فإذا وليـا عـن المـرء ولَّـى
أبدًا تسترد ماتهـب الدنـــيا ∴ فياليـت جودهـا كـان بخـلاً
وهى معشوقة على الغدر لا تحـْ ∴ فَـظُ عهـدًا ولا تـتمم وصـلا
شيم الغانيـات فيهـا فـلا أد ∴ رى لذا أَنَّثَ اسـمها النـاسُ أَمْ لاَ

وفى البيت الأخير حسن تعليل معجب فضلا عن تتابع الحكم فى الأبيات كالماء الزلال.

ونمضى مع العجب العجاب فى روائع حكم المتنبى أعجوبة الدنيا وشاغل الناس فتراه يصور الحياة والناس ويقول إن الحياة من طبيعتها الأحزان ولا تصفو إلا لجهول أو مغفل فى ماضيها ومستقبلها لأنهما لا يفكران فى مجد ولا عاقبة. وتصفوا أيضًا لفرد يغالط نفسه فى الحقائق ويتعلق بما لا يكون أبدًا. ثم يتسائل عن موت الفـراعين العظـام وأن الموت نهاية كل عادل مدرار أو ظلوم كفار. والآثـار التـى يتركهـا الموتى. تفنى بدورها بعد حين. ويجب أن يكون المرء شجاعا قويـا. ومن كان سلاحه الشكوى والبكاء. فسلاحه عليه لا له يقول :

تصفو الحياة لجاهل أو غافل ∴ عما مضى منهـا ومـا يتوقـع
ولمن يغالط فى الحقائق نفسه ∴ ويسومها طلـب المحـال فتطمـع
أين الذى الهرمان من بنيانه ∴ ما يومه ما قومّه ما المصـرع
تتخلف الآثار عن أصـحابها ∴ حينا ويـدركها الفنـاء فتتبـع
وإذا حصلت من السلاح على البكا ∴ فحشاك رعت به وخَـدَّك تقـرع[1].

ويدعوا لسيف الدولة فى قصيدته فى رثاء أخته ألا تناله مصائب الليالى والأيام فإن إصاباتها مميته. ومن تفكر فى الدنيا أصابه التعـب

---

(١) الوساطة ص ١٤٧ .

والعجز. وقد أساء المتنبى إلىنفسه كثيرًا بشكه فـــى عاقبـــة الأرواح. يقول :

فلا تنْلك الليـــالى إن أيـــديها ∴ إذا ضربن كسرن النبَّـــعَ بـــالغَرَب
ولا يعن عدوا أنـــت قـــاهره ∴ فإنهن يصدن الصـــقر بـــالخربَ
وربما احتسب الإنسان غايتها ∴ وفا جأته بأمر غيـــر محتســـب
وما قضى أحـــد منهـــا لبانتـــه ∴ ولا انتهـــى أرب إلا إلـــى أرب
تخالف الناس حتى لا أتفاق لهم ∴ إلا على شجب والخلف فى الشجب
فقيل تخلص نفس المرء ســـالمة ∴ وقيل تشرك جسم المرء فى العطب
ومن تفكر فى الدنيا ومهجته ∴ أقامه الفكر بين العجز والتعـــب

ويقول :

لو فكر العاشق فـــى منتهـــى ∴ حسن الذى يســـبيه لـــم يســـبه
يموت راعىالضأن فى جهله ∴ ميتـــه جـــالينوس فـــى طبـــه

ويعلن الرجل عن المرارة التى أصابته مـــن ناقضـــى العهـــود وخونة الأمانة. ويدعو إلى استخدام القوة فى مواجهة الغـــادرين. ثـــم يرسل هذه الحكمة فيقول من المصائب لوم جهول لا ينفك لائما مصرا على غبائه. ومن البلية أيضا خطاب من لا يفهم .

يقول :

والناس قد نبذوا الحفاظ فَمُطْلَقٌ ∴ ينسى الذى يُولَى وعـــافٍ ينـــدمُ
لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى ∴ حتى يراق على جوانبـــه الـــدمُ
والظلم من شيم النفوس فإن تجد ∴ ذا عفـــــة فلعلـــــة لا يظلـــــمُ
ومن البلية عذل من لا يرعوى ∴ عن غيه وخطـــاب مـــن لا يفهـــم

فالناس لا يحفظون جميلا – ومن عفا عنهم يندم على عفوه عـــن

اللئام والناس ظالمون ولا ئمون ولا يفهمون. إنها حسرات متتابعة يسوقها المتنبى ثم هجا ابن كيغْلَغ. وهجا زوجته ووصفها بالدناءة والخنا وشبهه بالقرد. والعجوز إذ تلطم وأنه ظل يضرب على قفاه حتى استمرأ هذا الإذلال وقال إن عداوة العاقل خير من صداقة الجاهل. وقال إن صفعات على المهجور كأنها عصًا على قفاه ولكن الأبيات تحمل إفحاشا لا يطاق !!

يقول :

وإذا أشار محدثا فكأنه ∴ قرد يقهقه أو عجوز تلطم
يقلى مفارقه الأكف قذاله ∴ حتى يكاد على يد يتعمم
ومن العداوة ما ينالك نفعه ∴ ومن الصداقة ما يضر ويؤلم

وهجا كافورًا فسخر منه. وجعل الآخرين يسخرون منه أيضا فقال:

من علم الأسود المخصى مكرمةً ∴ أقومه البيض أم آباؤه الصيد
أم أذنه فى يد النخاس دامية ∴ أم قدره وهو بالفلسين مردود

وقوله فى كافور أيضًا :

وأسود أما القلب منه فضيق ∴ نخيب وأما بطنه فرحيب
يموت به غيظا على الدهر أهله ∴ كما مات غيظًا فإتك وشبيب
إذا ما عدمت الأصل والعقل والندى ∴ فما لحياة فى جنابك طيب[1].

إنه يسخر من لونه الأسود وأصله الرقيق حيث كان يباع فى سوق النخاسة . ويصفه بضيق الصدر واتساع الكره وبخله الشديد حتى على أهله. وينفى عنه كرم المحتد. والعقل. والجود. ولا قيمة للحياة

---

(١) صفحة ١٥١ .

بدون هذه المثل، إن المتنبى صانع حكم وأمثال – ومدائح وأهاج – تخلد الممدوح. وتجعل المهجو أضحوكة . فى جميع العصور . ولو كان ملكاً مطاعًا ولكنها أفاعيل الشعر وسحر البيان.

من حسن التخلص فى شعر المتنبى :

يقصد بحسن التخلص. الانتقال الحسن من المقدمة الشعرية التى اعتاد الشعراء أن يبدؤا بها قصائدهم. إلى الغرض الذى خصصت له القصيدة. ومن حسن التخلص قوله :

حَدَقٌ يَذُمْ من القواتل غيرها ∴ بدرُ بن عمار بن إسماعيلا

يقصد انه يعطى الذمام ويجير من القوائل والمصائب المهلكة. وهذه الحدق القواتل لا يذمها بدر ولكنه يذم غيرها من القواتل !! وقوله :

مرت بنا بين تربيها فقلت لها ∴ من أين جانس هذا الشادن العربا
فاستضحكت ثم قالت كالمغيث يرى ∴ ليث الشرى وهْو من عجل إذا انتسبا

يشبهها بالغزال بين العرب فضحكت وقالت : إذا جالست غير جنسى. فكذلك المغيث . هو أسد ولكنه عجلى !! وقوله :

جمح الزمان فما لذيذ خالص ∴ مما يشوب ولا سرور كامل
حتىَ أبو الفضل بن عبد الله رؤ ∴ يته المُنَى وهْىَ المقام الهائل

شكا من الزمان فى خلطه السراء بالضراء – وزادت مصائبه بحرمانه من رؤية الممدوح وهى المقام الهائل . وقوله :

إذا صلت لم أترك مُصالا لفاتك ∴ وإن قلت لم أترك مقالا لعالم
وإلا فخانتنى القوافى وعاقنى ∴ عن ابن عبيد الله ضعف العزائم

يصف نفسه بالشجاعة والشاعرية المتوقدة . ويدعو على نفسه إن

لم يصدق أن يخونه شعره وأن يحرم من مشـــاهدة الممـــدوح وهـــذه تخلصات بالغة حد الروعة والإعجاب !!

تخلصات غير مقبولة :

وعلى الرغم من كثرة التخلصات الحسنة فى شعر المتنبى التـــى اكتفينا بعرض بعض نماذجها. فإن له بعض التخلصـــات المســـتكرهة يقول صاحب الوساطة : ولعلك لا تجد له تخلصًا مستكرها إلا قوله :

أحبك أو يقولـــوا جَـــرَّ نمـــلٌ ∴ ثبيـــرا أو ابـــن إبـــراهيم ريعـــا

وقوله :

أعز مكان فى الدنى سرج سابح ∴ وخير جليس فىالزمـــان كتـــاب
وبحر أبى المسك الخضم الذى له ∴ على كل بحـــر زخـــرة وعُبَـــابُ

فهى تخلصات غير حسنة ولكنها ليست من المستهجن الســـاقط. فهو يقول بحق خير مكان فى الدنيا ظهر الفرس السريع وخيـــر مـــن تجالسه الكتاب. وكرم كافور الزاخر على كل جود. ولكـــن المناســـبة بينهما ليست قريبة . وفى البيت الأول يعبر عن حبه الذى لا ينقطـــع. وعلقه على مستحيل وهو أن يجر النمل جبل ثبير . أو يرتاع ممدوحه ومن التخلصات غير الحسنة أيضًا قوله :

فأفنى ما أفنته نفسى كأنمـــا ∴ أبو الفرج القاضى له دونها كهف

يقول ما أفنت الأحزان نفسه لأن الممدوح كهف له . وهو تخلص ليس بكثير الحسن . وقوله :

لو استطعت ركبتُ الناس كلهـــم ∴ إلى سعيد بن عبـــد الله بعرانـــا

يقول لو استطعت ركبت الناسَ جميعا جمالا يصلون بها إلى جود الممدوح . وهوتخلص ليس له وقع فى النفس .

من المعيب من ابتداءاته :

من المعيب من ابتداءات المتنبى : قوله :

كفى أرانى ويك لومك ألوما ∴ هم أقام على فؤادى أنجما

فلا يحسن الابتداء بالهم واللوم . والعياذ بالله تعالى .

وقوله :

هذى برزت لنا فهجت رسيسا ∴ ثم انثنيت وما شفيت نسيسا

والرسيس هو القلب والنسيس بقية النفس. ولا يحسن الابتداء بالأخبار بعدم شفاء النفس . وقد استبرد ابتداؤه فى قوله :

أمساورٌ أم قرن شمس هذا؟ ∴ أم ليث غاب يقدم الأستاذا

فهو يقول على سبيل التجاهل أهذا الممدوح أم الشمس أم الأسد الذى يمشى قبل الوزير (الأستاذ)

وقوله :

أثلت فإنما أيها الطلل ∴ نبكى وترزم تحتنا الأبل

فهو يبكى وإبله ترزم. وما العلاقة ؟ وهل هذا يبتدا به.

وقوله :

مُلث القَطْر أعطشها ربوعا ∴ وإلا فاسقها السم النقيعا

وقوله :

بقائى شاء ليس هم ارتحالا ∴ وحسنَ الصبر زموا لا الجمالا

يقول شاء بقائى الارتحال عنهم. وقد ربطوا الصبر وقيدوه وتركوا الجمال. وهذا ابتداء بارد . وهو فى البرود كقوله :

مبيتى من دمشق على فراش ∴ حشاه لى بحر حشاى حاشى

وقوله :

وقاؤكما كالربع أشجاه طاسمه ∴ بأن تسعدا والدمع أشفاه ساجمه

فهو معقد الألفاظ ملتو المعنى وقد سبق .

واستقبح أن يبدأ مخاطبة الملك كافور بقوله :

كفى بك داءً أن ترى الموت شافيا ∴ وحسب المنايا أن يكنَّ امانيا

يواجه ملكا باليأس والقنوط وأنه لا يشفيه ولا يريحه إلا الموت. وما هكذا يبتدأ الكلام. مع أقل الناس حظا من الإحساس فضلا عن كونه يخاطب ملكا.

من الابتداءات المبتكرة :

ولكن القاضى الجرجانى يغتفر للمتنبى هذه الابتداءات المعيبة لكثرة ماله من ابتداءات حسنة عجيبة كقوله :

أتراها لكثرة العشاق ∴ تحسب الدمع خلقة فى المآقى

لكثرة دموع الباكين عليها ظننت ذلك كذلك . وهو معنى من ابتكارات المتنبى.

وكقوله :

على قدر أهل العزم تأتى العزائم ∴ وتأتى على قدر الكرام المكارم

وكقوله :

الرأى قبل شجاعةالشجعان ∴ هو أولٌ وهى المحل الثانى

وكقوله :

فاذا هما اجتمعا لنفس مرة ∴ بلغت من العلياء كل مكان

فالرأى قبل الشجاعة وإذا اجتمعا فى نفس بلغت ذرا المعالى.

ومن ابتداءاته الحسنة إخباره عن أن كل امرئ من النـــاس لـــه عاداته أما عادة سيف الدولة فالجلاد والجهاد يقول :

لكل امرئ من دهره ماتعودا ∴ وعادة سيف الدولة الطعن فى العدا.

وقوله إن أعلى الدول ما بنيت على الأسنة والرماح :

أعلى الممالك ما يبنىعلى الأســل ∴ والطعن عند محبـــيهن كالقبـــل

وقوله إن أفاضل الناس هم أهل المصائب . وأهل النعـــيم أشـــباه الحيوانات يقول :

أفاضل الناس أغراض لذا الــزمن ∴ يخلو من الهم أخلاهم مـــن الفطـــن

ويخبر عن آلامه التى لا تزحزحها المدام. ويتوقع قصـــر أجلـــه فيشبه عمره بهبة اللئيم فى القلة والضآلة وهو ابتداء حسن .

يقول :

فـــؤاد مـــا تســـلبه المُـــدَام ∴ وعُمر مثل مـــا تهـــب اللئـــام.

وكقوله :

اليوم عهدكم فـــأين الموعـــد ∴ هيهات ليس ليوم عهـــدكم غَـــدُ

هذه أبيات تعد أمثالا سائرة. مختارة فى معانيهـــا وألفاظهـــا. ولا نقول إن المتنبى فوق النقد والمؤاخذة ولا يحسن أن يقال فى معانيـــه. إنها خاصة به ولم يسبقه أحد ولا لحقه أحد فهذه من المبالغـــات غيـــر المقبولة ولكنا نقول إن حسنات الرجل أضعاف أضعاف ما عثـــر فـــى شعره من سيئات.

ضياع كثير من الشعر :

يقول العلامة القاضى الجرجانى فى توجيه للأجيال القادمة مـــن

بعده وفى نصح أمين هو سمة العلماء العاملين. إن الحكم على الشعر اكثره يجئ انقيادا إلى الظن. وإلى ما يغلب على النفس . فأما اليقين والثقة والعلم والإحاطة فمعاذ الله أن أدعيه. ولو ادعيته لوجب عليك ألا تقبله.

فالشعراء كثيرون وحظوظهم مختلفة. ولقد لحق الخمول بكثير منهم . وضاع الكثير من الشعر . ولقد اسقط البحترى أكثر من خمسمائة شاعر فى عصر ه وقد تصل أشعارهم إلى غيرهم .ونحن لا نعرف عنها شيئا .

وهذا فى عصر البحترى فقط فماذا عن العصور اللاحقة على زماننا هذا. وكيف الحال بأشعار الماضيين أيضًا.

وذكر الأصمعى. أن فتية أتوا أبا ضمضم الراوية. فأنشدهم لمائة شاعر تقريبا كلهم يسمى عمرًا .

قال الأصمعى فعددت أنا وخلف الأحمر فلم نقدر على ثلاثين.

وقيل إن أرجوزة رؤبة التى هى عين شعره لرجل اسمه نذير وكان له أخوان يدعوان منذرا ومنتذرا ...وكانوا وغيرهم رجَّازًا فلم يهبطوا الأمصار. فذهبت أشعارهم وانتحلها كذبة الشعراء .

وهذا يدل على قلة الأشعار التى بين أيدى الناس بالنسبة إلى ما ضاع منها !! .

حكيم الزمان

من عيون شعر المتنبى :

الأشعار الجيدة للمتنبى تعد من عيون الشعر فى كل العصور فقد أودعها حكمه وتجاربه فى الحياة والناس بجانب دقة نسجها البديع . من ذلك قوله :

وما الجمع بين الماء والنار فى يدى ∴ بأصعب من أن أجمع الجد والفهما

فهو يرى الاستحالة كاملة فى الجمع بين الفهم وكثرة المال. ويرى أنهما ضدان لا يجتمعان أبدًا من وجهة نظره!!

ومن عيون حكمه قوله : بأن هام العدو يتجمع فى سيوف الممدوح كما يتجمع القوم فى العين وأسنته كأنها هموم لا تضرب إلا القلوب يقول :

كأن الهام فى الهيجا عيون ∴ وقد طبعت سيوفك من رقاد
وقد صغت الأسنة من هموم ∴ فما يخطرن إلا فى فؤاد

وفى نظرته إلى أكثر حاكمى زمانه يراهم عبيدا والناس أغنام لهم وهذا العبد كان فى الماضى جلفا يُبْرى القلم بظفره

يقول :

بكل أرض وطئتها أمم ∴ ترعى بعبد كأنها غنم
يستخشن الخز حين يلمسه ∴ وكان يُبْرى بظفره القلم

ويبالغ فى حسنات ممدوحه فيقول إنه أخفى عنا مصائب الزمان. وهو كسلك الدر يخفيه النظام وهو بسمة الزمن . يقول :

فقد خفى الزمان به علينا ∴ كسلك الدر يخفيه النظام

لقد حسنت بك الأوقات حتى ∴ كأنك في فم الدهر ابتسام

ويعزى نفسه إذا جهله الأغبياء فهم عمى البصيرة لا يحسون ولا يشعرون . ولا يعرفون أقدار الأفاضل من أمثاله !. يقول:

وإذا خفيت عن العدو فعاذر ∴ ألا ترانى مقلةٌ عمياءُ

ويكشف عن نفسية الرجل الذليل الذى استمرأ المذلة. فإذا سيقت إليه أخرى كانت كجرح فى جسد ميت لا يشعر ولا يحس .

يقول :

من يهن يسهل الهوان عليه ∴ ما لجرح بميت إيلام[1].

ويصف خيله السريعة بدقة الإحساس / ولولا حياؤه لرقصت بهم / ومن سرعتها تكاثر التراب فوقنا وتصلب بحيث يمكن السير فوقه. وهو من مبالغاته التى احتوت على تخييل حسن يقول :

طربت مراكبنا فخفنا أنها ∴ لولا حياءٌ عاقها رقصت بنا

عقدت سنابكها عليها عثيرا ∴ لو تبتغى عنقًا عليه لأمكنا

ومن معانيه العجيبة . تفضيل الأقدام على الرءوس لأنها توصل إلى كرام الناس . يقول :

خير أعضائنا الرءوس ولكن ∴ فَضَلَتهَا بقصدك الأقدام

ويشبه هجاء الحقير من الناس بمحاولة المشى فى فتر وهو المسافة بين طرفى الإبهام والسبابة . بجامع عدم الإمكان فى كل ؟

يقول :

فلو كنت امرأ يُهجى هجونا ∴ ولكن ضاق فتْرٌ عن مسير

---

(١) ديوان المتنبى ج ٤ ص ٩٤ .

وعن تفسيره لما بنفس المظلوم . من آلام لا تمحوها جمال الثياب . فما قيمة جودة الكفن للميت يقول :

لايَعْجَبَنَّ مضيما حسنُ بزتــه ∴ وهل تروق دفينا جــودة الكفــن

ويعبر عن مساءته بعلو السفهاء وأنه لــيس دلــيلا علــى زوال خستهم ويشبه علوهم على الأفاضل بعلو التراب على الحبيس يقول :

ولو لــم يَعْــلُ إلا ذو محــل ∴ تعالى الحبيس وانحــط القَتَــامُ

ويصور نفسية عبيد الأموال بأنهم الفقراء حقًا فيقول :

ومن ينفق الساعات فى جمع ماله ∴ مخافة فقر فالذى فعــل الفقــر

ويتحدث عن البلاء الذى يعانيه المبتلى بعدو دائم العداوة يستحيل إصلاحه . ويقول إنه دائم البكاء وكان جفونه تتســاقط عليهــا جميــع دموع البواكى

يقول :

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى ∴ عدوا له ما مــن صــداقته بُــدُّ
تلجُّ دموعى بالجفون كأنمــا ∴ جفونى لعَيْنَىْ كــل باكيــة خَــدُّ

ويعبر عن أحزانه التى ملأت البر والبحر والجو فشحب ســواده. وأنه يقلب عينيه فى الجو ليعد ذنوب الزمان وأكثر بها من آلام.

يقول:

كأن الجو قاسى مــا أقاســى ∴ فصــار ســواده فيهــا شــحوبا
أقلــب فيــه أجفــانى كــأنى ∴ أعــد بــه علىالــدهر الــذنوبا

ويعلن عن شدة حزنه. وأنه ما رأى فى حياته شيئًا حميدًا فيقــول متبرما بالحياة والناس :

من خص بالدم الفراق فإننى ∴ من لا يَرى فى الدهر شيئًا يُحْمَدُ

ويتحدث عن غدر جميلات النساء وانه خلق دائم لهن يقول :

إذا غدرت حسناء وفت بعدها ∴ ومن عهدها ألا يدوم لها عَهْدُ

رحم الله تعالى هذا الرجل الذى عاش للعذاب والآلام فصورها أدق تصور. فيقول على سبيل التهكم وشر البلية ما يضحك : إنه نقيب المصابين وأهل البلاء. وأن المصائب تقع عليه فيتراكم بعضها فوق بعض فتتكسر ولا تكسرها لصارت قضيبًا مهلكا. وهى بذاتها مهلكة. وطب الأطباء لا ينفعه إنه يريد طب المسيح وهو كناية عن معجزة تأتى من عند الله وحده . ولا نجاة له بغير هذه المعجزة . وما جاءت المعجزة. ومات الرجل تجاوز الله عنه.

يقول :

عرفت نوائب الحدثان حتى ∴ لو انتسبت لكنت لها نقيبا
يصيب ببعضها أفواق بعض ∴ فلولا الكسر لاتصلت قضيبا
فآجرك الأكم على عليل ∴ بعثت إلىالمسيح به طبيبا

الفوق من السهم موضع الوتر وجمعه أفواق .

وقد بالغ فى وصف نفسه بالضآلة طولا وعرضا فرأى أنه لو ألقى فى شق القلم أثناء الكتابة لما كان له وزن يشعر الكاتب . بأن شيئا ألقى فى قلمه يقول :

ولو قلم أُلْقِيت فى شَقِّ رأسه ∴ من السقم ما غَيَّرْت من خط كاتب

وفى القصيدة التى رثى فيها والدة سيف الدولة وصفه بأنه بين الملوك كمستقيم بين معوجين وقد تفوق على الناس جميعا ولا عجب فى هذا فإن المسك جزء من دم الغزال وقد تفوق على كل الدماء

يقول:

رأيتك فى الذين أرى ملوكا ∴ كأنك مستقيم فى محال
فإن تفق الأنام وأنت منهم فإن المسك بعض دم الغزال

ووصفه بأنه لا عيب فيه إلا أنه من البشر. قال :

أنت الذى لو يعاب فى ملأ ∴ ما عيب إلا بأنه بشر

ومدحه بأنه من فرط شجاعته. لو شاء استولى على مافى أيدى أعدائه. ولكنه يبقيهم فى مواقعهم أملا فى دخولهم فى طاعته بلا حرب يقول :

كأن العدا فى أرضهم خلفاؤه ∴ فإن شاء حازوها وإن شاء سلموا

وهاتان مبالغتان واضحتان !!

وهو يرى أن مقابلة الشر بالشر أصوب من مقابلته باللين فبعض النفوس لا تستقيم إلا عن ذلة وهم صاغرون . يقول :

وما ذاك نجلا بالنفوس على القنا ∴ ولكن صَدْمَ الشرِّ بالشرِّ أحزم

وقد نصبت خيمة لسيف الدولة أثناء غزوه للروم بميافارقين فهبت ريح شديدة فوقعت الخيمة فتكلم الناس فى ذلك فقال لهم المتنبى من فرح الإنسان ما يقتل :

فلا تُنْكِرَن لها صَرْعَةً ∴ فمن فرح النفس ما يقتل
وما اعتمد الله تقويضها ولكن أشار بما تفعل

وفى البيت الثانى . يقول : إن وقوع الخيمة أشارة من الله تعالى إلى الإذن بالجهاد. ويتحدث عن الصديق الوفى بأنه وفى القلب ويرى ببصر غير متلون :

ما الخل إلا من أود بقلبه ∴ وأرى بطرف لا يرى بسوائه

ولو قال : لا يرى بسواه لكان أفضل ...

ومن نظراته فى الكون والناس يرى أن أتعب من ناداك وأغيظ من عاداك الرجل الحقير الخسيس الذى يرى نفسه زورًا ندًّا للأفاضل يقول :

وأتعب من ناداك من لا تجيبه ∴ وأغيظ من عاداك من لا تشاكل

وإذا كان الحلم سيد الخلاق. فإنه هبة إلهية . ولا يمكن تكلفه بتقدم السن فإن تكلفه أحدٌ افتضح . !!

يقول :

وإذا الحلم لم يكن عن طباع ∴ لم يُحَلِّمْ تقدم الميلاد

ويتحدث عن الشامتين والأشرار بأنهم إذا رأوا مصيبة كالسهم ركبوا لها سنانا لتكون سريعة القتل ويقول وإذا تأكدت من موتك فمت شجاعا ومزق عدوك يقول :

كلما أنبت الزمان قناة ∴ ركب المرء فى القناة سنانا

وإذا لم يكن من الموت بدٌّ فمن العجز أن تموت جبانا

وهو لا يطلب من الناس إحسانا سوى أن يتركوا القبائح. وأن يحرصوا على الذكر الجميل فإنه عمر ثان للإنسان . وفى عمره الأول يكفيه القليل. وما زاد عن حاجته. فمشغوليات لا ناقة له فيها ولا جمل لأن نتيجتها تؤول إلى وارثه من بعده . يقول :

إنا لفى زمن ترك القبيح به ∴ من أكثر الناس إحسانٌ وإجمال

ذكر الفتى عمره الثانى وحاجته ∴ ما قاته وفضول العيش أشغال

ويرى أن العبيد لا خير فيهم ولا طريق لهم إليه . يقول :

فلا تُرَجِّ الخير عند امرئ ∴ مرت يد النخاس فى رأيه

ويتحدث عن الصبر على اللئام ولا بد من توجيه اللوم إليهم فلعله يردعهم عن الأساءة إلى الناس. يقول :

إذا أتتك الإساءةُ من وضيع ∴ ولم أُلُم اللئيم فمن ألوم

ويرى أن العبد لا يقومه إلا العصا فإنه نجس الخلق منكود الطبع. يقول :

لا تشتر العبد إلا والعصا معه ∴ إن العبيد لأنجاس مناكيد

ويقول : إن ألفاظ البلغاء يخلق لهم الحسد فى نفوس اللئام.

إذا سمع الناس ألفاظ ∴ خلقن له فى القلوب الحَسَدْ

ويتحدث عن مضايقات أهله له بأنه قد تفوق على الناس وحده. ويريدونه أن يوجد الحكمة فى نفوسهم جميعا وهذا ما لا يستطيعه إلا الله وحده يقول :

وقد كنت أدركتُ المنى غير أننى ∴ يعيِّرنى أهلى بإدراكها وحدى[1].

والمتنبى يرى أن من دلائل الكمال فى الرجل أن يذمه أهل النقص . ويقول : إنه ليس من شيم التكبر ولكنه يكره الجاهل المتعاقل يقول :

وما التيه طبى فيهم غير أننى ∴ بغيض على الجاهل المتعاقل

ويقول :

وإذا أتتك مذمتى من ناقص ∴ فهى الشهادة لى بأنى كامل

وإذا طالعْتَ بقية شعر المتنبى وتصفحت ديوانه. علمت أن عيون شعره كثيرة وأن الردئ فى الديوان قليل قليل وما تبرأ أحد من الغفلة

---

(١) ديوان المتنبى ج ٢ ص ٦٩ .

– ولا يدعى السلامة من الخطأ. وعناية الخصم بشهوده أتم من عناية الحاكم . ومن هذا العرض الموجز يتجلى لنا أن المتنبى حكيم الزمان. وأن حسناته تفضل سيئاته بكثير إن شاء الله تعالى .

مبالغات المتنبى طائشة :

يدعى الحاسدون لهذا الشاعر العملاق أنه مجرد ليث مغير. أو سارق مختلس. لا يسلم له بيت . ولا يخلص له من معانيه شئ لأنه مسبوق بها. ولكن المتنبى قد فتح على نفسه باب الحسد . عندما بالغ فشبه ممدوحيه بالأنبياء وهو فى هذا مخطئ كل الخطأ . فمثلا جاء فى شعره أن سيف الممدوح لو صادف رأس عاذر وهو رجل من بنى إسرائيل أحياه الله لعيسى بن مريم عليه السلام لقتله الممدوح ولما استطاع عيسى أن يحييه مرة أخرى . أخطأ المتنبى. فعيسى عليه السلام لا يحيى ولا يميت بذاته ولكن ذلك قد حدث بأمر الله عز وجل

ويقول : لو كان لج البحر مثل يمين ممدوحه ما انشق البحر حتى يجوزه موسى يريد أن ممدوحه أكرم من البحر ويرى أن إشراق جبين الممدوح أكثر من إشراق النار ولو كان لها مثل إشراقه لعبدت من دون الله فكانت المجوسية حينئذ دين البشرية كلها. وهذا تصوير فاسد فاسد. فإن النار أصل الإحراق والإشراق ولا قيمة لكون الممدوح بجانبها. وقد عبدت من دون الله فما للمتنبى عند عيسى وموسى عليهما السلام إنهما نبيان كريمان من أولى العزم من الرسل عليهم السلام ولا قيمة لممدوح فى مجال النبوات أصلا .

يقول الشاعر المخطئ . ولكل شاعر هفوة :

لو كان صادف رأس عاذر سيفه ∴ فى يوم معركة لأعيا عيسى

أو كان لج البحر مثل يمينه ∴ مانشق حتى جاز فيه موسى

أو كان للنيران ضوء جبينه ∴ عبدت فكان العالمون مجوسا

لقد دفع المتنبى إلى الخطأ دفعا فقال ما قال . ومرة يدعى أن ممدوحه مخلوق من العنبر والرجال من طين وبقية طين الممدوح لاقت الماء فكانت سر عذوبته. فما هذه الادعاءات التى لا أصل لها. ويقول : إن الماء الذى يلابس رجل الممدوح إذا نضح فى المدن لم يقع فيها زلزال. وكل هذا من فاسد الغلو . يقول :

فخذا ماء رجله وانضحا فى الـ ∴ مُدْنِ تأمن بوائق الزلزال
رجل طينه من العنبر الوردْ ∴ دِ وطين الرجال من صلصال
وبقيات طينه لاقت الما ∴ ء فصارت عذوبةً فى الزلال

وإن وجد فى هذه الأبيات خير الصياغة فإنه لا يفى بشر المعانى. وجرمه فيها يزيد على عذره . وما فيها معنى مقبول إلا الإفراط والإغراق والغلو. والإطالة .

ومن إحالاته ادعاؤه أن السحاب حقد على الممدوح لأنه أكثر منه جودا فأصابته الحمى فعرق وعرقه المطر. قال :

لم تحك نائلك السحاب وإنما ∴ حمت به فصيبها الرُّحضَاءِ

وما أشبه إحالته هذه بإحالة أبى تمام عندما جعل الدهر يصرع فى قوله :

تروح علينا كل يوم وتغتدى ∴ خطوبٌ كأن الدَّهرَ منهن يصرع

وقد جعل بشار الزمان يموق أى يحمق فى غباوة . قال :

وما أنا إلا كالزمان فإن صحا ∴ صحوت وإن ماق الزمان أموق[1]

ومن ردئ شعره قوله :

---

(١) الأغانى ج ٣ ص ٣٢٥ .

لو الفلك الدوار أبغضت سعيه .·. لعوقه شئ عن الدوران[١].

يقول ساحب الوساطة : وهذا البيت من قلائده. لكن كلمة شئ فى مثل هذا البيت ضعيفة يتجنبها الفحول. وهذه المبالغات وما شاكلها لجاج مهذول وتكلف غير مقبول !!

السرقات الشعرية

يقول صاحب الوساطة رحمه الله تعالى : أن جهابذة الكلام ونقاد الشعر . هم الذين يميزون بين أصنافه وأقسامه. ويحيطون علما برتبه. ومنازله . حتى يمكن معرفة العصب من السَّرق. والأغارة من الاختلاس. والإلمام من الملاحظة. وهناك فرق بين المشترك الذى لا يجوز ادعاء السرقة فيه. والمبتذل الذى ليس أحد أولى به. وهناك المختص الذى حازه المبتدئ فملكه. وأحياه السابق فاقتطعه. فصار المعتدى مختلسا سارقا.والمشارك له محتذيا تابعا. وبهذا يعرف اللفظ الذى يقال فيه أخذ ونقل. والكلمة التى يصح أن يقال فيها. هى لفلان دون فلان.

فتشبيه الحسن بالشمس والقمر. والجواد بالغيث والبحر. والبليد بالحجر والحمار. والشجاع بالسيف والأسد والنار متقررة فى النفوس. متصورة للعقول. يشترك فيها الناطق والأبكم والفصيح والأعجم . والشاعر والمفحم. فالسرقة فى هذه الأمور منتفية.

أما ما يصح فيه الاختراع والابتداع فهو متداول أيضا. لا يعد مسروقا. وإن كان الأصل فيه لمن انفرد به. كتشبيه الطلل المحيل بالخط الدارس. وتشبيه الظعن المتحملة بالنخل. وسؤال المنزل عن

---

(١) دلائل الأعجاز تحقيق خفاجى(الشيخ عبد القاهر الجرجانى ج ١ ص ٩٢ .

أهله. والتفجع لمن استبدل بعد ساكنه. ولوم النفس على بكاء الدار. ووصف الغيث بالعموم وتغطية وجه الأرض.واقتلاع الروح . وتفريق الوحش . ووصف البرق بخطف الأبصار وأنه كالقبس من النار. وكالحريق المتضرم وكمصباح الراهب فالمشترك العام الشركة لا ينفرد به أحد دون أحد . فإن حسن الشمس والقمر. ومضاء السيف وشجاعة الأسد وبلادة الحمار. وجودة الغيث. وما شاكل تلك الأمور يعرفها كل أحد. وهو مركب فى النفس تركيب الخلقة.

وهناك صنف آخر. سبق المتقدم إليه ففاز به . ثم تدوول بعده فكثر. فصار الأول فىالجلاء والاستشهاد. والاستفاضة على السن الشعراء. وهذا قد حمى نفسه من السرقة. ويشاهد ذلك فى تشبيه الطلل بالكتاب والبُرْد وتشبيه الحسناء بالغزال عينا وجيدا . وبالمهاة حسنا وصفاء. يقول عنتره :

ألاَ يا ما لذا البَرْق اليمانى ∴ يضيءُ كأنه مصباح بان

ويقول امرؤ القيس :

يضئ سناه أو مصابيح راهب ∴ أمالَ السليط بالذّبَالِ المفتَّلِ

والسليط الزيت. والذبال: الفتيل واحده ذبالة .

وقال كثير :

وترى البرق عارضا مستطيرا ∴ مرح البُلْقِ جُلْنَ فى الأجْلالِ[1].

ولو قال شاعر : لا مرحبا بالشيب وحبذا الشباب لحكم البعض بأنه جاهل مغفل . لأنها معان مطروقة مغسولة.

---

(١) الوساطة ص ١٨٦ .

التفاضل فى المعانى المشتركة :

وبعض النقاد يفاضلون بين الشعراء فى هذه المعانى المتداولة المشتركة التى لا تنتسب إلى شاعر دون آخر. فقد ينفرد أحدهم بلفظة تستعذب. أو ترتيب يستحسن. أو تأكيد أو زيادة أهتدى إليها وحده. فيربك المبتذل فى صورة المبتكر. كما قال لبيد :

وجلاَ السيول عن الطلول كأنها ∴ زبرٌ تجدٌ مُتونَها أقلامها

فأدى المعنى المبتذل بصورة مخترعة مبتكرة. حتى سجد لها الفرزدق وقال أنتم تعرفون سجدة القرآن وأنا أعرف سجدة الشعر .

وقال امرؤ القيس :

لمن طللٌ أبصرته فشجانى ∴ كخط زَبور فى عسيب يمانى

وقول حاتم :

اتعرف اطلالاً ونُؤْيا مُهَدَّما ∴ كخطك فى رق كتابًا منمنما

وأمثال ذلك مما لا يحصى كثيرة . ولكن بيت لبيد افضل منها كلها .

وتشبيه الخد بالورد مثلاً شئ عامى مبتذل ولكن الشاعر قد يتصرف فيه فيجعله بعيدا خاصيا. تأمل قول على بن الجهم .

عشية حيانى بورد كأنه ∴ خدودٌ أضيفت بعضهن إلى بعض

فأضاف بعضهن إلى بعض. أو كقول ابن المعتز :

بياض فى جوانه احمرار ∴ كما احمرت من الخجل الخدود

يقول صاحب الوساطة : والخجل إنما يحمر وجنتيه. فأما منبت الأصداغ. ومخط العذار فقليلا ما يحمران. ولو قال : حمرة فى

جوانبها بياض. لطبَّق المفصل واصحاب الغرض. ووافقه شبه الخجل. ولعله أراد اجتماع البياض والأحمر فجعل الاحمرار فى جوانب البياض .

وقال أبو سعيد السكرى :

والورد فيه كأنما أوراقه ∴ نزعت ورد مكانهن خدود

ومثل هذا التصرف يهز النفس ويطربها. وتحس أنه انفرد بفضيلة. على الرغم من كون المعنى فى أصله عاميا مشتركا بين الناس.

لا سرقة مع الابتكار :

لا يقول أحد بأن شاعرًا قد سرق إذا ابتكر معنى جديدا ركبه على المعنى القديم وبهذا يعد ممدوحا مزكى لا سارقا مُلَوَّما . وهل يشك أحد فى فضل امرئ القيس إذ يشبه الناقة فى سرعتها . بتيس الظباء فى عدوه . يقول :

أو تَيْس أظب ببطن واد ∴ يعدوا وقد أُفْرِدَ الغزال

فقد زاد إفراد الغزال وهذا زيادة حسنة لأنه مع الانفراد يزداد خوفه وهلعه . فيزداد عدوه. وقد زاد امرؤ القيس أيضًا فى وصف الظعنة . قال :

كجيب الدِّفْنِس الورها ∴ ء رِيعَتْ وهى تَسْتَفِلى

والدفنس المرأة الحمقاء. وتشبيه الطعنة بجيب الحمقاء(وجيب الفتاة) عامى يشترك فيه الكثيرون ولكن أمرأ القيس أتى بزيادة هى قوله : ريعت وهى تستفلى. لأنها حينئذ ترتاع فتستعجل فتكون عن الرفق بمعزل.

وقد زاد أوس بن حجر التقسيم فى قوله فى المعنى نفسه :

وفى صدره مثل جيب الفنا ∴ ة تشهق حينا وحينا تهد

وأجرى التقسيم بين الشهيق والهزير. ولكن زيادة امرئ القيس أدق واغمض مأخذا. وأوقع تشبيها وهناك من أورد المعنى على حاله. واضطرته القافية إلى ترك الزيادة فقال الفند الزمانى : فى المعنى نفسه أيضا !

كجيب الدفنس الورها ∴ ء ريعت بعد إجفال

أهمية الإيجاز فى نقد الشعر :

قد يقول شاعر المعانى فى عدة أبيات فيؤدى غيره نفس المعانى فى بيت واحد. فيكون أفضل وأبلغ والبلاغة الإيجاز من ذلك قول النابغة الذبيانى :

أبى غفلتى أنى إذا ما ذكرته ∴ تَقَطَّعَ حُزْنٌ فى حَشَى الجوْفِ دَاخِلُ
وأن تلادى إن نظرت وشكَّتى ∴ ومُهْرِى وما ضَمَّتْ إلى الأنامل
حِبَاؤُكَ والعيشُ العِتاقُ كأنَّها ∴ هِجَانَ المَهَا تُرْدى عليها الرحائلُ

فهو إذا تذكر ممدوحه أحس بفضله فيحزن لفراقه. فكل ماله وملبسه ومركبه وكل ما فى يده من فضل هذا الجواد الكريم وكذلك قد وهب إبله العتاق التى تشبه الخيول فى السرعة.

وقد جمع أبو دهبل الجمحى هذه المعانى فى قوله :

وكيف أنساك لا أيديك واحدة ∴ عندى ولا بالذى أوليت من روث

يقول : إن أفضالك على كثيرة متعددة بعضها جديدة وبعضها قديم. وفضلك دائم لا ينقطع.وبهذا يكون الثانى أبلغ وأدق لأنه أوجز وأتى بالمعانى الكثيرة فى ألفاظ قليلة . فتمم المعنى وأكده أحسن توكيد.

والأمور العظيمة قد تنسى إذا تقادم عهدها.

وقد جمع النابغة نفسه هذه المعانى كلها فى بيت واحد فى قوله:

وما أغْفَلْتُ شُكْرَكَ فانْتصِحْنى ∴ فكيف ومن عطائك جُلَّ مَـالِي

فاحسن وزاد على أبى دَهْبَل بأن جَعل جل مالـه مـن عطائـه.

واقتصر أبو دَهْبَل على تتابع الأيادى وقال أبو الجُوَيْرِيَّة

يزيد على سَرْوِ الرجال بِسَرْوِه ∴ ويقصر عنه قـول مـن يتمَـدَّحُ

وهو مأخوذ من قول الخنساء :

وما بلغت لف امرى متنـاول ∴ من المجد إلا والذى فيك أطـول

وما بلغ المهدون نحوك مدحةً وإن أطنبوا إلا وما فيـك أفضـل

وقد جمع أبو الجويرية معنى البيتين فى بيت واحد فهـو أوجـز وأفضل يقول : إن الممدوح يزيد فضله على فضل الرجال.

ومن مدحه فقال ما قال : فإن الممدوح أعلى وأفضل مما قيل وما يقال .

سرقة اللفظ والمعنى :

إن سرقة اللفظ والمعنى عمل مـذموم . غيـر قابـل للـدفاع!! وللأسف فقد وقع فى هذه السرقة كبار الشعراء !! من ذلك سرقة جرير بيت سويد بن كُرَاع العُكلى :

وما بات قوم ضامنين لنا دما ∴ فَنُـو فيهـا إلا دمـاءٌ شَـوافِعُ

فلامه عمر بن نجاء التيمى. فهاج الشر بينهما.وسرق الفـرزدق بيت جميل وقال أنا أحق بهذا البيت وأخذه اغتصابا والبيت هو :

ترى الناس ما سرنا يسيرون خلفنـا ∴ وإن نحن أومأنا إلىالنـاس وَقَّفُـوا

وسرق أبو تمام أبيات أبى مَكْنِفٍ المزنى من ولد زهير بن أبـــى سلمى. فى رثاء ذُفَافَة العَبْسِيِّ يقول :

كأن بنى القعقاع بعـد وفاتـه ∴ نجوم سماء خر من بينهـا البـدر
توفيـت الآمـال بعـد ذُفَافَـة ∴ وأصبح فى شغل عن السَّفَرِ السَّفْرُ
يُعَزَّوْنَ عن ثاوٍ تعزى بـه العـلا ∴ ويبكى عليه البأس والمجدُ والشعر
وما كان إلا مال من قلَّ مالـه ∴ وذخرا لمن أمسى وليس له ذُخْـرُ

فسرق أبو تمام أكثر هذه القصيدة . وجعل مكان بنى القعقـاع . بنى بنهان . وأبدل باسم ذفافة محمدًا.

وقد أنشد عبد الله بن الزبير معاوية رضى الله عنه :

إذا أنت لم تنصف أخاك وجدته ∴ على طرف الهجْرَان إن كـان يعقـل
ويركب حد السيف من أن تضيمَهُ ∴ إذا لم يكن عن شفرة السيف مَزْحَـلُ

فقال له معاوية : لقد شعرت بعدى . يا أبا بكر. ثم دخل معن بن أوس المزنى عليهما فأنشده قصيدته التى مطلعها :

لعمرك ما أدرى وإنى لأوجل ∴ علـى أينـا تعـد والمنيـة أول

وفيها البيتان السابقان. فقال معاوية لعبد الله ألم تخبرنى أنها لك. فقال المعنى لى واللفظ له، وبعدُ. فهو أخى من الرضاعة وأنـا أحـق الناس بشعره .

وسرقات الشعراء كثيرة. قال امرؤ القيس :

كأنى لم أركب جـوادًا للـذة ∴ ولم اتبطن كاعبـا ذات خَلْخَـال
ولم أسبأ الزِّقَّ الروى ولم أقل ∴ لخيلى كرى كـرة بعـد إجفـال

وهو مأخوذ من قول عبد يَغُوث بن وقاص الحارثى :

كأنى لم أركب جوادا ولم أقل ∴ لخيلى كرى نفسى عن رِجَاليـا

ولم أسبأ الزق الروى ولم أقل ∴ لأيسار صدق عظموا ضوء ناريا

وقال مالك بن الريب :

العبد يقرع بالعصا ∴ والحر يكفيه الوعيد

وقال يزيد بن مُفرِّغ :

العبد يقرع بالعصا ∴ والحر تكفيه المَلامَهْ

وقال ثالث :

العبد يقرع بالعصا ∴ والحر تكفيه الإشارة

وقال محمد بن وهب :

هل الدهرُ إلا غمرةٌ وانجلاؤها ∴ وشيكا وإلا ضيقةٌ تتفرجُ

وقد أخذه البحترى فقال :

هل الدهر إلا غمرة ثم يَنْجَلى ∴ عماها وإلا ضيقةٌ وانفراجها

وقول حزْن بن جناب المنْقَرى :

وما المرء إلا حيث يجعل نفسه ∴ ففى صالح الأخلاق نفسك فاجْعَلِ

أخذه حريث أبو اللحام فقال :

وما المرء إلا حيث يجعل نفسه ∴ فأبصر بعينيك أمرأ حيث يعمد

وقول نافذ بن عطارد :

وإنى لأعطى المال من ليس سائلا ∴ ومن لم يكن يوما ليعطينى سُؤلى

أخذه الأصلح بن قصاب فقال :

وإنى لأعطى المال من ليس سائلا ∴ وأعرض عن بادى الشَّذاة مليم

أى يعطى من لا يسأله ويعرض عن الذى ظهرت حدة طبعه وكثر لومه.

وقال المخَضَّع العبدى :"

ومن يقترف خُلْقًا سوى خلق نفسه ∴ يَدَعْهُ وتَرْجِعُه إليه الرواجع

أخذه الأعور الشنىٍّ فقال :

ومن يقترف خُلْقًا سوى خلق نفسه ∴ يدعْهُ ويغلبه علىالنفس خِيمُها

هذه سرقات شاملة للمعانى وأكثر الألفاظ أو كلها وهذا شئ غير محمود !!

سرقة المعانى :

ما سبق كان صورا لسرقة الألفاظ من معانيها. وينبغى أن يستحيى من هذا !!

وفى هذا المقام نعرض لسرقة المعانى وحدها قال لبيد :

وما المال والأهلون إلا ودائع ∴ ولا بد يوما أن تُرَدَّ الودائع

أخذ المعنى الأفوه الأودى فقال :

إنما نعمة قوم متعةٌ ∴ وحياة المرءِ ثوب مستعار

فهو ذكر الحياة. وذاك ذكر المال والولد. وكأنهما جعلا مع الودائع والثانى جعل الحياة عادية.

والبيت الأسبق : وما المرء إلا حيث يجعل نفسه .....

مأخوذ من بيت سابق :

فنفسك أكرمها فإنك إن تَهُنْ ∴ عليك فلن تلقى لها الدهرَ مُكْرِما

وقال زهير :

وليس لمن لم يَرْكب الهول بُغْيةٌ ∴ وليس لمن قد حطه الله حاملُ

وقول حاتم :

إذا أوطن القومُ البيوت وجدتهم ∴ عماةً عن الأخبار خرق المكاسبِ

وقول الآخر :

خاطر بنفسك كى تصيب غنيمة ∴ إنا القعود مع العيال قبيح

وقال أبو العيال :

ومن يك مثلى ذا عيال ومقترا ∴ من المال يطرح نفسه كل مطرَح[1].

وقال سهم بن حَنْظَلَةَ :

إعص العواذل وارم الليل عن عرض ∴ بذى سبيب يقاس ليله خَبَبَا

حتى تصادف مالاً أويقال فتًى ∴ لاقى الذى شَعَّب الفتيان فالشعبا

وقال أبو تمام :

ذرينى وأهوال الزمان أُعَانها ∴ فأهواله العظمى تليها رغائبة

وجميع أبيات هؤلاء وثيقة الصلة بقول زهير السابق. وزاد أبو تمام تحقيق دَرْك البغية. وحصول المراد له لا محالة على معاناة الأهوال واقتصر زهير على التأميل. فله مزية السبق والصدق. وقال أبو هَفَّان :

أنا السيف يُخْشَى حدُّه قبل هَزِّهِ ∴ فكيف وقد هُز الحسامُ المُهنّدُ

وقال البحترى :

ويخشى شذاه وهو غير مسلط ∴ وقد يتوقى السيف والسيف فى الغمد

وقال المتنبى :

ويرهب ناب الليث والليث وحده ∴ فكيف إذا كان الليوث له صَحْبَا

ويخشى عبابُ البحر وهو مكانَهُ ∴ فكيف بمن يغشى البلاد إذا عبَّا

---

(١) العمدة لابن رشيق ج ١ ص ٢٤

فالمعنى واحد. والمعارض والتشبيهات مختلفة. وتعاور المعانى بين الشعراء لا يعاب عند الأكثرين .

إخفاء السرقة (السرقة الخفية) :

قد يتفنن السارق فيأخذ المعنى. ولكنه ينقله من غرض إلى غرض. وهذا كسرقة أبى نواس لمعنى بيتٍ لكثير مع نقله من الغزل إلى المديح قال كثير :

أريد لأنس ذكرها فكأنها ∴ تمَثَّلُ لى ليلى بكل سبيل

وقال أبو نواس :

مَلِكٌ تَصَوَّرَ فى القلوب مثاله ∴ فكأنه لم يخل منه مكان

فإذا تأمل الفطن معنى البيتين عرف الوصلة التى تجمع بينهما. ولا يدرك هذا المصفوف المغفل .

ومن السرقة الخفية ما تجئ على وجه القلب الذى قصد به النقض كقول المتنبى :

أنت نقيض اسم إذا اختلفت ∴ قواضب البيض والقنا الذُّبُل

وهو نقيض قول أبى نواس :

عباس عباس إذا احتدم الوغى ∴ والفضل فضل والربيع ربيع

فهذا عين اسمه. وذاك نقيض اسم. وهو سرقة بارعة دقيقة الخفاء ولذلك قبلها البلاغيون وعدوها مما لا يعاب .

آفة الرأى الهوى :

تختلف آثار الهوى عن جو الأنصاف. فالهوى آفة تعمى الضمير عن الحق [١]. أما الأنصاف فهو سر الاستقرار والأمن فى نفوس الناس فقد عزى أبو نواس الخليفة العباسى محمدًا الأمين فى وفاة أبيه هارون الرشيد رحمه الله. ومدحه برباط الجأش فقال :

تعزى أمير المؤمنين محمدا ∴ على خير مَيْتٍ غيبته المقابر
وإن أمير المؤمنين محمدا لرابط جأش للخطوب وصابر

زعم انه مسروق من قول موسى شهوات : يرثى عبد الملك ويعزى الوليد .

بكت المنابر يوم مات وإنه ∴ ابكى المنابر فقد فارسهنَّه
لما عَلاَهُنَّ الوليد خليفةً قلن ابنه ونظير فسَكَنَّهْ

ولا يتشابه النصان فى لفظ ولا فى معنى. وكل ما فيهما أن كلا من الشاعرين يعزى خليفة بموت أبيه الخليفة السابق ويمدحه بأنه كأبيه فى الجود والشرف. فإن كان هذا سرقة . فكل الكلام سرقة . وهذه تهمة ما جرها إلا الهوى والبعد عن العدل والإنصاف. والذى يقارب قول موسى قول محمد بن عبد الملك يرثى المعتصم ويمدح الواثق :

لَنْ يجبر الله أمةً فقدت ∴ مثلك إلا بمثل هارون

فجعل انجبار الأمة المكسورة بموت المعتصم. بإبنه هارون الواثق. وهذا شبيه بسكون المنابر بالوليد بعد البكاء على أبيه وهذا أخذ لطيف.

---

(١) الوساطة ص ٢٠٩ .

ومن الإنصاف أن يقال إن بيت زهير :

صحا القلب عن سلمى واقصر باطلــه ∴ وعرى أفراس الصا ورواحلــه

وثيق الصلة بقول أشجع :

إذا خالط الشيب الشباب تجهــزت ∴ إلى البين أفراس الصبا ورواحله.

والفضل للسابق (زهير) .

وزعم ابن قتيبه أن قول هدبة بن الخشرم:

ولا اتمنى الشر والشر تاركى ∴ ولكن متى أُحْمَلْ علىالشرِّ أركب

أنه مأخوذ من قول تأبط شرا :

ولَسْتُ بمفراح إذا الدهر سرنى ∴ ولا جازع من صرفه المتحــول

وبينهما من التباين ما ينفى قول ابن قتيبة فهدبة يقول إنه لا يسعى إلىالحرب والحرب شر. ولكنه إذا هوجم دافع عن نفسه دفاعًا باســلاً. أما تأبط شرًا فيرى أنه لايفرح فرح البطر وقت النجاح ولا تنال منــه الخطوب الشديدة. فالمعنيان متباينان فأين السرقة ؟ فينبغــى للناقــد أن يخلى مشاعره تماما من العصبية . والهوى والمداهنة . أما الذى يقرب من بيت تأبط شرا فهو قول كعب بن زهير :

لا يفرحون إذا نالت رمــاحهم ∴ قوما وليسوا مجازيعا إذا نيلــوا

سرقة الأشعار داء قديم :

إن الاستفادة من أشعار الناس خاصة. وأقوالهم عامة شئ قــديم يفعله كل قارئ وسيبقى الناس إلى آخر الليالى والأيام يستفيد بعضــهم من بعض . أما السرقات الشعرية فمرض قديم وعيب عتيق. وما يزال الشعراء يستعينون بخواطر غيرهم. ويستمدون من قرائحهم فى الألفاظ والمعانى. ولكن سرقاتهم قد تظهر وقد تختفى وقد أخفــى المحــدثون

سرقاتهم بالنقل مرة. وبالقلب مرة أخرى كما اشرنا إلى ذلك من قبل .

وغيروا المناهج والترتيب مرات ومرات وابتعدوا عن النقائض بالزيادة والتأكيد والتعريض مرة والتصريح مرة اخرى وأحيانا يزيدون الاحتجاج والتعليل والتوجيه . والواقع أن المتقدمين قد استغرقوا المعانى الهامة تقريبا. وأتوا على معظمها وتركوا بعض المعانى رغبة عنها. أو استهانة بها. أو لبعد مطلبها. وتعذر الوصول إليها [١].

لكل هذا يقول صاحب الوساطة : ومتى أجهد أحدنا نفسه فى تحصيل معنى يظنه غريبا مبتدعا. ثم تصفح عنه الدواوين لم يخطئه أن يجده بعينه. أو يجد له مثالا يغض من حسنه.

يقول : ولهذا البيت أخطر على نفسى ولا أرى لغيرى بتّ الحكم على شاعر بالسرقة. لما أدعى البحترى السرقة على أحمد بن أبى طاهر أحسن الأخير فى الرد عليه فقال :

والشعر ظهر طريق أنت راكبه ∴ فمنه منشعب أو غير منشعب
وربما ضَمَّ بين الركب منهجه ∴ وألصق الطنب العالى على الطنِب

ولكن من وجد فى شعره شئ من معانى غيره حُكمَ عليه بالأخذ منها. ويحسن القول : إن فلانا قال كذا وقد سبقه إليه فلان فقال كذا. فاغتنم به فضيلة الصدق وأسلم من اقتحام التهور.

من سرقات المتنبى :

ادعى على المتنبى أنه سرق الكثير من معانيه وبعض ألفاظه. ومثل هذا الصنيع لا يسلم منه أحد. فلم يختص الناقدون المتنبى بالذم قيل : إن قوله :

---

(١) الوساطة ص ٢١٥ .

وهكذا كنت فى أهلى وفى وطنـــى ∴ إن النفيس غريب حيثمـــا كانـــا

وقبله قال ابوتمام :

غَرَّبَتْهُ العُلا على كثرة الأهـــ ∴ ـلِ فأضحى فى الأقـــربين جنيبـــا

فليطل عمرُه فلو مات فى مرْ ∴ وَ مقيمـــا بهـــا لمـــات غريبـــا

إن الغربة فى طلب المعالى عمل محمود فى كل جيل ويكاد يكون معنى مشتركاولهذا فإنى لا أقطع القول بسرقة المتنبى لبيته الســـابق . وهو اجود واسلم . وقد أساء أبوتمام بذكر الموت فى المـــديح. ومـــن مات فى بلده غريبا. فهو فى حياته غريب. وأى فائـــدة فـــى اســـتقبال الممدوح بما يتطير منه .

ومن عيون القول بيت أبى الطيب :

إلا إنما كانـــت وفـــاة محمـــد ∴ دليلا على أَنْ لـــيس لله غالـــب

وهو وثيق الصلة بقول أبى تمام :

كفى فقتل محمد لـــك شـــاهد ∴ أن العزيز مـــع القضـــاء ذليـــل

إلا أن قول المتنبى أوقع فى النفس .

وقال المتنبى أيضا :

غيرَ اختيارِ رضيت برِّك بـــى ∴ والجوع يرضى الأسود بـــالجيف

وهو موصول بقول المهلّبى :

مـــا كنـــت إلا كلحـــم ميـــتٍ ∴ دعـــا إلـــى أكلـــه اضـــطرار

وقول أبى علىَ البصير :

ولكـــن الـــبلاد إذا اقشـــعرت ∴ وصوَّح نبتهـــا رُعـــى الهشـــيم

والشعراء الثلاثة مشكورين يشيرون إلى أن الضرورات قد تدفع

إلى قبول غير الحسن وفى مقام آخر نرى المتنبى يبالغ فى سخاء الممدوح لدرجة علمت الزمان السخاء فسخا به. وربما لا يفعل ذلك مرة أخرى. يقول :

أعدى الزمان سخاؤه فسخا به ∴ ولقد يكون به الزمان بخيلا

ولكن البيت متصل بقول أبىتمام :

هيهات لا يأتىالزمان بمثله ∴ إن الزمان بمثله لبخيل

وإذا كان المرء لا ينال النجاح إلا بعد التعب. فإنى لا أستطيع أن أبت الأمر فى سرقة قوله :

تريدين إدراك المعالىرخيصةً ∴ ولا بُدَّ دون الشهد من إبر النحل

من قول العَتَّابى :

فإن جسيمات المعالى مَشوبَةٌ ∴ بمستوعدات فى بطون الأساود

لأن التعب دائمًا وسيلة النجاح يقول أبى تمام :

بصرت بالراحةالكبرى فلم ترها ∴ تنال إلا على جسر من التعب

وقال أبو الطيب :

هو الشجاع يَعد البخل من جُبُن ∴ وهْوَ الجواد يعد الجُبْنَ من بَخَل

وهو مسبوق بقول أبى تمام :

أيقنت أن من السماحة شجاعةً ∴ تدمى وأن من الشجاعة جودا

والشجاعة جود بالنفس . يقول مسلم بن الوليد :

تجود بالنفس إذا ضَنَّ الجواد بها ∴ والجود بالنفس أقصى غاية الجود

وقال المتنبى :

بكل أشعث يلقى الموت مبتسماً ∴ حتى كأن له فى قتله أربا

وقال البحترى :

متسرعين إلى الحتوف كأنها ∴ وَفْرٌ بأرض عدوهم يَتنهب

وقال أبو تمام :

مسترسلين إلى الحتوف كأنهم ∴ بين الحتوف وبينهم أرحام

ومن قديم الزمان يسير أهل العلم خلف أهل السلطة . يقول البحترى :

تعنوا له وزراء الملك خاضعةً ∴ وعادة السيف أن يستخدم القلما

وقال أبو الطيب :

حتى رجعت وأقلامى قوائل لى ∴ المجد للسيف ليس المجد للقلم
أكتب بنا أبدا بعد الكتاب به فإنما نحن للأسياف كالخدم

قال محمود الوراق :

إذا أنت لم تَسْلُ اصطبارًا وحِسبةً ∴ سلوت على الأيام مثل البهائم

وقال أبوتمام :

أتصبر للبلوى عزاءًا وحسبةً ∴ فتؤجر أم تسلو سُلُوّ البهائم

وقال المتنبى :

وللواجد المكروب من زفراته ∴ سكون عزاء أو سكون لُغُوبِ[1].

وقال ابن المعتز :

وما ينتقص من شباب الرجال ∴ يزد فى نهاها وألبابها

وقال المتنبى :

ليت الحوادث باعتنى الذى أخذت ∴ منى بحلمى الذى أعطت وتجريبى
قما الحداثة من حلم بمانعةٍ ∴ قد يوجد الحلم فى الشبان والشيب

---

(١) الوساطة ص ٢٣٩ .

حسد اللئام

على مر الزمان رأى الناس اللئام الفاشلين مـــوليعين بهـــدم الكرام الناجحين ويرمونهم بعيوب لا أصل لها إلا فى اللئام .

قال دعبل :

تلك المساعى اذا ماأخرت رجلا ∴ أحب للناس عيبا كالـــذى عابـــه

كذاك من كان الهـــدَم غايتـــه ∴ فإنـــه لبنـــاة المجـــد ســـبابه

فمن أخره عجزه ولؤمه أحب للناس جميعـــا أن يكونـــوا لئامـــا عاجزين . ومن كانت غايتة الهدم فهمه دائما سببٌ الماجدين وفى نفس المعنى يقول ابوتمام :

..... **وذو النقص فى الدنيا بذى الفضل مولع .**

ويقول مرْوَان بن أبى حفصة :

ما ضرنى حسد اللئام ولم يزل ∴ ذو الفضل يحسده ذوو النقصانِ

وفى رواية ذوو التقصير . وأصحاب العيوب دائما اجرأ النـــاس على عيب أهل الكمال . يقول آخر:

وأجرأ من رأيت بظهر غيـــب ∴ على عيب الرجال ذوو العيـــوب

وحول حسد المسعورين من اللئام يقول المتنبى :

وإنه المشير عليك فى بضـــلة ∴ والحر ممـــتحن بـــأولاد الزنـــا

ويقول :

تعادينـــا لأنـــا غيـــر لُكْـــنٍ ∴ وتبغضـــنا لأنـــا غيـــر عـــورِ

وقد زاد فى المعنى وأحسن فقال :

وإذا أتتك مذمتى من نـــاقص ∴ فهى الشهادة لى بأنى كامـــل[1]

---

(١) الوساطة ص ٢٤٧ .

ومن هذا المعنى قول الطِّرِمَّاح :

لقد زادنى حبا لنفسى أننى ∴ بغيضٌ الى كل امرئ غير طائل
وإنى شقى باللئام ولَنْ ترى ∴ شقيا بهم إلا كريم الشمائل

ومع التنقل فى البلاد طلبا للجوائز .

فهذا خلق لا يقبلة أعزة الناس . لأنه يستلزم إراقة ماء الوجة ولكن الكثيرين لموثوابه !!

قال أبو تمام :

وما سافرت فى الآفاق إلا ∴ ومن جدواك راحلتى وزادى

وقال المتنبى :

محبك حيثما اتجهت ركابى ∴ وضيفك حيث كنت من البلاد

ولعل هذه سرقة واضحة بدليل اتفاق المعنى والوزن والقافية . والكذب فى المعنى فكيف يعيش الشاعر على نفقة الممدوح فى كل مكان . أليس هناك ممدوح آخر . أو مكسب آخر . أو مال مورث .؟

تقاذفُ بى بلادٌ عن بلادٍ ∴ كأنى بينها عَيْرٌ شرود

ونقله المتنبى الى معنى آخر فشبه البلاد بمسامعه فى حب التحول إليها وأنه مثل ما يقول عواذله . قال :

يخيَّل لى أن البلاد مسامعى ∴ وأنى فيها ما تقول العواذل

الشجاعة والتجارب :

وصف الشعراء ممدوحيهم بان شجاعتهم شجاعة شباب وتجاربهم تجارب شيوخ فجمعوا لهم بين الحسنيين

يقول البحترى :

ملك له فى كل يوم كريهةٍ ∴ إقدام غرٍّ واعتزام مجرب

وقال المتنبى :

تدبير ذى حُنَكٍ يفكر فى غـدٍ ∴ وهجوم غرٍّ لا يخـاف عواقبـا

وقيل : إن الأصل فى هذا قول قطرى بن الفجاءة :

ثم انثنيت وقد أصبت ولم أصب ∴ جذع البصـيرة قـارح الأقـدام

ويقول القاضى الجرجانى [١] وهو ليس عندى كذلك لأن قطريا زعم أن إقدامه إقدام قارح وبصيرته بصيرة جذع والقارح أتم سنا من الجذع. وهؤلاء زعموا أن إقدامهم إقدام غر وتجاربهم تجارب كهـل محنك فهو ضد ذلك المعنى . إلا إذا قيل هذا من باب القلب فلا يبعـد عن الصواب وقد فسر البلاغيون بيت قطرى وفقا لما إرتآه القاضـى الجرجانى رحمه الله تعالى .

المدح بالجود بين الجودة والرداءة :

إن الشجاعة والكرم خير صفات الرجال . ولكن بعض الشعراء قد بالغوا فى وصف ممدوحيهم بالجود الى أن وصلوا بهم الى الحمـق والهذيان والجنون . بل والى الكفر أحيانا . وهذه معان غيـر مقبولـة أصلا . وهذه نماذج من أشعارهم : يقول أبو تمام :

مازال يهذى بالمكارم والندى ∴ حتـى ظننـا أنـه محمـوم

فهذا معنى بارد . وغرض فاسد . وزاده فسادًا بإضافة الحمـى الى الهذيان . وهو الى الهجاء أقرب منه انى المديح !!

وهو مأخوذ من قول العنبرى :

ماكان يعطى مثلها فى مثلـه ∴ إلا كـريمُ الخـيم أو مجنـونُ

فما المناسبة فى عطف المجنون على كريم الخيم (الأصـل) .

---

(١) الوساطة ص ٢٥٨ .

وأربى المتنبى عليها فى الرداءة عندما نفى العقل والإسلام عن ممدوحه فقال :

حتى يقول الناس ماذا عاقلاً ∴ و يقول بيتُ المال ماذا مسلمًا

فأى ممدوح يقبل أن ينسبه الناس إلى الجنون مرة .... وينفى بيت المال عنه الإسلام مرة أخرى لأنه فرق أموال المسلمين فى الناس .

أما النظم الجيد فى المدح بالجود كقول البحترى :

كالبدر أفرط فى العلو وضوؤه ∴ للعصبة السارين جِدُّ قريب

و كقول المتنبى :

كالشمس فى كبد السماء و ضوؤها ∴ يغشى البلاد مشارقا و مغاربا

وكقوله :

كالبدر من حيث التفتَّ رأيته ∴ يهدى الى عينيك نورا ثاقبا

و كقول أبى تمام :

مضوا وكأن المكرمات لديهم ∴ لكثرة ما أوْصوْا بهن شرائع

فإنه قصد الزكاة و الصدقات . وهى قمة الجود . وهى شرائع. لأن الزكاة أحد أركان الاسلام الخمسة . ثم قلبه فقال :

جود تدين بحلوه و بمره ∴ فكأنه جزء من التوحيد

و قال المتنبى :

كأن سخاءك الإسلامُ تخشى ∴ إذا ما حلت عاقبة ارتداد

و تشبيه السخاء بالإسلام أو بأنه جزء من التوحيد لا تستريح نفس المسلم اليه . لأن ما أمامنا مبالغات خالية فى المدح بالكرم . فلا يحسن إقحام الإسلام و التوحيد فى هذا المقام . و أخطاء الشعراء

فى هذا المقام كثيره : و التشبيهان فى البيتين باردان . و كذلك التشبيه الضمنى (البخل بالردة) هذا و يقول الفرزدق :

جعلت لأهل الأرض عدلا ورحمة ∴ و برءا لآثار الجروح الكوالم
كما بعث الله النبى محمدًا ∴ على فترة و الناس مثل البهائم

و هذه أيضا مبالغة ممجوجة تجاوزت حدود القبول .

فتشبيه خلافة أى من خلفاء بنى أمية ببعثة النبى ﷺ . تشبيه بارد . وغير مقبول لان وجه الشبه بعيد

أما تشبيه الناس بالبهائم فمقبول لأن الكافرين ﴿ **لهم قلوب لا يفقهون بها و لهم آذان لا يسمعون بها .... أولئك كالأنعام بل هم أضل** ﴾ .

فى الشيب و الامجاد و المال .

يتطير الشعراء كثيرا بالشيب و يكرهونه كرها واضحا و يرونه نذير الموت . و به تهرب منهم الغوانى وساقطات بنات حواء و لهذا يفضلون عنه الموت قتلا ، يقول المتنبى :

ضيف ألم برأسى غير محتشم ∴ و السيف أحسن فعلا منه باللمم

وقال البحترى :

وددت بياض السيف يوم لقيننى ∴ مكان بياض الشيب حل بفارقى

والشاعران فى هذا غير موفقين . فكيف يفضل امرؤ أن يقتل بالسيف عن نزول الشيب برأسه . وهو وقار وتذكره !!

وطلب المجد مقدم على طلب المال عند الأماجد ويرى المتنبى أنه لا يرغب فى الذهب و لكنه راغب فى المفاخر و الأمجاد . يقول :

وما رغبتى فى مجد أستفيده ∴ و لكنها فى مفخر أستجده

ويقول :

فسرت اليك فى طلب المعالى ∴ و صار سواى فى طلب المعاش

ذلك لأن المال غاد و رائح .. يقول المتنبى :

أبدا تسترد ما تهب الدنـــ ∴ يا فيا ليت جودهـا كـان بخـلا

و قد يصاب الشعراء بالفقر و الضنك ، فيفضلون المال و الجهل على الحكمة و الفهم ... يقول البحترى :

أرى الحلم بؤسا فى المعيشة للفتـى ∴ و لا عيش الا ما حباك به الجهل

و يقول المتنبى :

ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله ∴ وأخو الجهالة فى الشقاوة ينعم

و يقول:

تصفو الحياة لجاهل أو غافل ∴ عما مضى منها و ما يتوقع

و لمن يغالط فى الحقائق نفسه ∴ و يرومها طلب المحال فتطمع

و يقول

أفاضل الناس أغراض لذا الزمن ∴ يخلو من الهم أخلاهم من الفطن

وهكذا يبدى المتنبى آلامه النفسيه فالعاقل شقى و أخو الجهاله فى نعيم متجدد . والحياة لا تصفو الا للجهله و المغفلين، والمغالطين، ومن لا يفهمون ، وأكثر الناس فى مصائب الدنيا الأفاضل وآهل الفطنه الأذكياء .

والبحترى يذم الحلم المصاحب للبؤس . و يمدح الغنى مع الجهاله و الحمق .

ويتحدث المتنبى عن بعض الناس العاجزين الحفاة العراة . ويرى أنه غيرهم وأن آماله لا تقف عند حد .

يقول :

وفى الناس من يرضى بميسور عيشه ∴ و مركوبه رجلاه و الثوب جلده
و لكن نفسا بين جنبىَّ مالها ∴ مدى ينتهى بى فى مراد أَحَدُّهُ

وقوله : والثوب جلده مأخوذ من قول أبى هفان : (ما شعارى الدهر غير جلدى)

و أفضل من ذلك كله قول المتنبى :

و الغنى فى يد اللئيم قبيح ∴ قدر قبح الكريم فى الإملاق

فى القتال موازنات :

وصف الأفوه الأودى قومه بالنصر على أعدائهم و إطعام الطيور من جثثهم يقول :

و ترى الطير على آثارنا ∴ رأى العين ثقة أن ستمار

و قال النابغة فى نفس المعنى :

أذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم ∴ عصائب طير تهتدى بعصائب .

و قال حميد بن ثور :

إذا ما غدا يوما رأيت غمامة ∴ من الطير ينظرن الذى هو صانع

و قال أبو نواس :

راح فى ثنى مفاضته ∴ أسدا يدمى شبا ظفره
تتأبى الطير غدوته ∴ ثقة بالشبع من جزره

و قال أبو تمام :

وقد ظللت عقبان أعلام ضحى ∴ بعقبان طير فى الدماء نواهل
أقامت مع الرايات حتى كأنها ∴ من الجيش ألا أنها لم تقاتل

قيل : إن قول أبى تمام (إلا أنها لم تقاتل) زيادة لطيفة تجعله أفضل القائلين فى هذا المقام . و يقول صاحب الوساطة : و أفضل من هذه الزيادة عندى قوله : (فى الدماء نواهل) و إقامتها مقام الرايات وبذلك يتم حسن قوله إلا أنها لم تقاتل . على أن الأفوه الأودى قد فضل الجميع بأمور هى السبق و هو الفضيلة العظمى و قوله : رأى عين . فخبر عن قربها لأنها إذا بعدت لم تشاهد . وقوله (ثقة أن ستمار) يوضح أنها و اثقة من نصرهم . ولم يجمع هذه الأوصاف غيره وقال المتنبى :

سحاب من العقبان يزحف تحتها ∴ سحاب إذا استقت سقتها صوارمه

فجعلها سحابتين و جعل السفلى تسقى العليا و هذا غريب . وعابه المتكلفون بأن السحاب لايسقى ما فوقه و بأن العقبان والطيور لا تطلب السقيا . وإنما تطلب الطعام . و لكن المسألة مسألة تصوير بيانى و ليست حقيقية حتى يقال فيها هذا التكلف .

وبضدها تتبين الأشياء :

لا يعرف الفضل الا ذووه وبضدها تعرف النعم . وقديما قيل : الصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يعرفه إلا المرضى . والمتنبى هنا يقول إنه ذم البخلاء و بهم عرف فضل الأجواد . و بضدها تتبين الأشياء .

يقول :

ونذمهم وبهم عرفنا فضله ∴ وبضدها تتبين الأشياء

فبين أن المضاهاة هى التى تبين حسن الشىء أو قبحه ثم أخفاه فقال :

ولولا أيادى الدهر فى الجمع بيننا ∴ غفلنا فلم نشعر له بذنوب

و يقول أبو تمام

ما أن ترى شيئا لشيء محييا ∴ حتى تلاقيه لآخر قاتلا

ومصيبة قوم قد تكون مفيدة لقوم آخرين .

يقول المتنبى :

بذا قضت الأيام ما بين أهلها ∴ مصائب قوم عند قوم فوائد

و يرى البحترى أن مجاروة المكارم للمساؤى يزيد محاسنها " كما ترى محاسن الكواكب بين الظلام .

يقول :

وقد زادها إفراط حسن جوارها ∴ خلائق أصفار من المجد خيب

وحسن دراری الكواكب أن ترى ∴ طوالع فى داج من الليل غيهب

وقد أبدع بشار إذ يقول فى هذا المعنى :

وكن جوارى الحى ما دمت فيهم ∴ قباحا فلما غبت صرن ملاحا

وجمع أبو تمام بين الوصل والهجر وأن طيب الأول لا يعرف إلا بألام الثانى يقول :

وليس يعرف طيب الوصل صاحبه ∴ حتى يصاب بنأى أو بهجران

و قال :

والحادثات وإن أصابك بؤسها ∴ فهو الذى أنباك كيف نعيمها

و قال:

سمجت ونبهنا على استسماجها ∴ ما حولها من نضرة و جمال

وكذاك لم تفرط كأبة عاطل ∴ حتى يجاورها الزمان بحال

الا أن كلمة استسماجها ثقيلة على اللسان فهى غير فصيحة !!!!

و الغربة محببة الى النفس اذا حققت فيها آمالها

و يقول البحترى :

وأحب أقطار البلاد الى الفتى ∴ أرض ينال بها كريم المطلب

و قال المتنبى :

وكل امرىء يولى الجميل محبب ∴ و كل مكان ينبت العز طيب

و قد تكون منية المرء بيمينه ولا أحد يسعى الى منيته قاصدا

يقول قيس بن زريح :

وما كنت أخشى أن تكون منيتي ∴ بكفى إلا أن ما حان حائن

و قال المتنبى :

وأنا الذى اجتلب المنية طرفه ∴ فمن المطالب و القتيل القاتل (١)

و قبيح بالمرء أن يسعى الى حتفه بقدميه

تأثر المتنبى بالكائدين .

إن تأثر المتنبى بكل من أبى تمام و البحترى جلى لا شك فيه ... يتجلى ذلك فى ذمه للزمان وفى كثير من المعانى التى طرقاها .

يقول المتنبى:

أزل حسد الحساد عنى بكبتهم ∴ فأنت الذى صيرتهم لى حُسَّدَا

و يقول البحترى :

والبستنى النعمى التى غيرت أخى ∴ على فأمسى نازح الود أجنبا

فالبيتان يشتملان على وجود الحسد عند النعم و المتنبى يطلب من ممدوحه كبت الحاسدين و البحترى يرى أن النعمة يحسد عليها

---

(١) الوساطة ص ٢٧٩ .

كل أحد حتى الأخ. وأصل المعنى لأبى جويريه وهو أحسن ما قيل فيه :

وما زال يعطينى وما لى حاسد ∴ من الناس حتى صرت أرجى وأحسد

وتحدث البحترى عن أن المطيع إذا لم يمنع العاصى فهو ملوم يقول :

تصد حياء إن تراك بأعين ∴ أتى الذنب عاصيها فلم مطيعها

وقال المتنبى فى نفس المعنى :

وجرم جره سفهاء قوم ∴ وحل بغيره جارمه العذاب

والكل مقتبس من قوله تعالى : ﴿ **اتهلكنا بما فعل السفهاء منا** ﴾ وقوله تعالى : ﴿**واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة** ﴾ .

وقد شبه أبو تمام ممدوحه بالجن فى خفة الحركة وبالطير فى السرعة . يقول :

فى عصبة إن سروا فجن ∴ أو يمحوا شقة فطير

وتأثر به المتنبى فقال :

نحن قوم ملجن فى زى ناس ∴ فوق طير لها شخوص الجمال

وقال أبو تمام :

إذا أنا لم ألم عثرات دهر ∴ أصبت به الغداة فمن اللوم

وزاد أبو الطيب وأحسن فقال :

إذا أتت الإساءة من وضيع ∴ ولَمْ أَلُمْ المسئ فمن ألوم ؟

فعثرات الليالى ملومة . وكذلك إساءة الوضيع المسئ .

فى الكناية عن النسبة :

نسب بعضهم الجود الى ممدوحهم بأنه لا يقصر عنهم ولا يتجاوزهم اذا وصل إليهم . وإنما يحل حيث حلوا لا يفارقهم أبدا ما دام الليل والنهار يقول :

ما قصر الجود عنكم يابنى مطر ∴ ولا تجاوزكم يا آل مسعود
يحل حيث حللتم لا يفارقكم ∴ ما عاقب الدهر بين البيض والسود

وقال الكميت :

يصير أبان قرين السما ∴ ح والمكرمات معا حيث صارا

وقال أبو نواس :

فما جازة جود ولا حل دونه ∴ ولكن يصير الجود حيث يصير

وقال أبو تمام :

إليك تناهى الجود من كل وجهة ∴ يصير فما يعدوك حيث يصير

ولكن المتنبى أراد أن ينسج على منوالهم فأساء وجاوز حتى قارب الهذيان حين قال :

ولست بدون يرتجى الغيث دونه ∴ ولا منتهى الجود الذى خَلْفَه خلفُ

وأحسن منصور النمرى حين قال :

الجود أخشن مسا يا بنى مطر ∴ من أن تتميزكموه كف مستلب
ما أعرف الناس أن الجود مدفعة ∴ للذم لكنه يأتى على النشب

وأحسن المتنبى حين قال :

لولا المشقة ساد الناس كلهم ∴ الجود يفقر والإقدام قتال

وقال أشجع السلمى :

وليس بأوسعهم فى الغنى ∴ ولكن معروفه أوسع

وأصل ذلك قول الأعرابى :

ولم يك أكثر الفتيان مالا ∴ ولكن كان أرحبهم ذراعا

قيمة السلاح بالرجال المقاتلين :

وقد تحدث الشعراء على أن قيمة السلاح باليد التى تحارب به فالسلاح فى يد الشجاع غيره فى يد الجبان والحديد واحد !!

يقول البحترى :

فلا تغلبن بالسيف كل غلاته ∴ ليمض فان الكف لا السيف يقطع

ويقول المتنبى :

تلقى الحسام على جراءة حده ∴ مثل الجبان بكف كل جبان

وينقل المعنى الى الخيل فيقول :

فما تنفع الخيل الكرام ولا القنا ∴ إذا لم يكن فوق الكرام كرام

فساد البناء على فساد

معالجو الأمور يجب عليهم بناؤها على أساس وطيد فإن لم يفعلوا تهدم بناؤهم و استحقوا اللوم و التشنيع .

يقول البحترى :

إذا ما الجرح رُمَّ على فساد ∴ تبين فيه تفريط الطبيب

ويقول المتنبى :

فإن الجرح ينفر بعد حين ∴ إذا كان البناء على فساد

المذلة للحكام ليست عارا :

يقول شمعلة بن قائد :

وإن أمير المؤمنين و فعله ∴ لكالدهر لا عار بما فعل الدهر

ويقول أبو تمام :

خضعوا لصولتك التى هى عندهم ∴ كالموت يأتى لـيس فيـه عـار

وقال المتنبى :

وما فى سطوة الأرباب عيـب ∴ و لا فى ذلـة العبـدان عـار

وقد أحسن يزيد المهلبى حين قال : " لا عار أن ضامك دهـر أو ملك " (١) .

فالأول يشبه أمير المؤمنين بالزمان . لاعار فى نوائبـه . وأبـو تمام يشبه ممدوحه بالموت لا عار فيه .

والمتنبى يرى أنه لا عيب فى سطوة الزعماء و لا فـى مذلـة العبيد . والمهلبى ينفى العار عن سطوة الدهور والملوك .

بين الفضة و الذهب :

جمع ذو الرمة بين لون البياض و الحمرة فى و جه معشوقته فقال:

كحلاء فى برج صفراء فى نعـج ∴ كأنهـا فضـة قـدمها ذهـب

وفعل المتنبى نفس الشىء فقال :

فمضت وقد صبغ الحياء بياضـها ∴ لونى كما صبغ اللجين العسجد

صحة الحدس و جودة الظن .

الألمعى يعيد النظر فى الناس قد تكون له استنتاجات لا يصـل اليها الا أمثاله . و لهذا فإن ما يتوقعه يحدث غالبا فى المستقبل .

يقول أوس بن حجر :

الألمعى الذى يظن بـك الـظ ∴ ن كأن قد رأى و قـد سـمعا

---

(١) الوساطة ص ٢٩٣ .

ويقول أبو تمام :

ولذاك قيل من الظنون جلية ∴ علم وفى بعض القلوب عيون

وقد أكثر الناس فى هذا ... يقول المتنبى

ماض الجنان يريه الحزم قبل غد ∴ بقلبه ما ترى عيناه بعد غد

ثم قال :

ذكى تظنيه طليعة عينه ∴ يرى قلبه فى يوم ما ترى غدا

وأعاده فقال :

ويعرف الأمر قبل موقعه ∴ فماله بعد فعله ندم

وقال :

مستنبط من علم ما فى غد ∴ فكأن ما سيكون فيه دُوِّنَا

و يقرب من قول أبى نواس

ما تنطوى منه القلوب بعجرة ∴ إلا تكلم به العينان

وقول على بن الخليل :

كلمنى لحظك عنك لما ∴ أضمره قلبك من غدر

وقال الخليع :

أما تقرأ فى عيـ ∴ نَىَّ عنوان الذى عندى

و هذا معنى قديم ... يقول الثقفى :

تخبرنى العينان ما القلب كاتم ∴ وماجَنَّ البغضاء و النظر الشذر

وقال آخر :

تكاشرنى كرها كأنك ناصح ∴ وعينك تبدى أن قلبك لى دوى

وقال أبو الطيب :

كأنك ناظر فى كل قلب ∴ فما يخفى عليك محل غاش

وقال :

فى العداوة وهى غير خافيــة ∴ نظر العــدو بمــا أســر يبــوح

والواقع أن رقة الإحساس وتوقد الذكاء يكشفان الكثير مما لدى العدو و الصديق .

يقول زهير :

متى تك فى عدو أو صــديق ∴ تخبرك العيــون عــن القلــوب

والمرء قد يجمع بين وصفين متناقضين فى وقتين مختلفين و قد وصف الله أصحاب النبى ﷺ ورضى الله عنهم : بــأنهم ﴿ **أَشِــدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ** ﴾ جمع لهم الشدة و الرحمــة . والقــوم الشجعان وصفهم الشعراء بالشؤم على أعدائهم واليمن على أوليائهم.

يقول كعب بن الأجزم :

بنو رافع قوم مشائيم للعــدا ∴ ميا مــين للمــولى و للمتحــرم

وقال المتنبى :

متفرق الطعمين مجتمع القوى ∴ فكأنــه الســراء و الضــراء
وكأنه مــا لا تشــاء عُدَاتُــهُ ∴ متمــثلا لوفــوده مــا شــاءوا

وقد جمع بين الضدين ابن المعدل فأحسن وأوجز ولكن أقتصر على البلد . فقال :

إذا وطــــن رابنــــى ∴ فكــــل بــــلاد وطــــن

وقد أحسن البحترى فى قوله :

ولا تقل أمم شتى و لا فــرَق ∴ فالارض من تربة والناس من رجل

وأجاد المتنبى حين قال :

إذا صديق نكــرت جانبــه ∴ لم تعينــى فــى فراقــه الحيــل

فى سعة الخافقين مضطرب ∴ وفى بلاد من أختها بدل

و أحسن المتنبى أيضا عندما جمع بين كسر السلام لمال الممدوح وجبر الحرب له بالغنائم يقول :

فالسلم يكسر من جناحى ما له ∴ بنواله ما تجبر الهيجاء

و مما يقرب من الفكاهة قوله :

جرى الخلف إلا فيك أنك واحد ∴ و أنك ليث و الملوك ذئاب

كرم الاصول

أبناء الاصول الكريمة يعفون عن السفاسف ويترفعون عن الدنايا ولايصنعونها فإذا جهلت أعراق فتى فانظر الى ما يصنع .

فكل إناء بما فيه ينضح .. يقول بعضهم :

وإذا جهلت من امرىء أعراقه ∴ و أصوله فانظر الى ما يصنع

وقال أبو تمام :

فروع لا ترِفُّ عليك إلا ∴ شَهِدْتَ لها على طيب الأروم

و قال المتنبى :

أفعاله نسب لو لم يقل معها ∴ جدى الخصيب عرفنا العرق بالغُصُنِ

فمن أراد إحترام أصوله ورضا ربه فعليه بجميل الصنائع .!!

الحلم و الجهل

من الخير للمسلم أن يعمل بقوله تعالى : ﴿ **ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ** ﴾ . و قوله عز شأنه : ﴿ **ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ(٣٤)** ﴾ .

وقوله سبحانه : ﴿ **وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا**

السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنْ النَّاسِ ..... ﴾ .

والعرب قديما فضلوا الحلم عن قدرة .

يقول سالم بن وايصة :

إن من الحلم ذلا أنت عارفه ∴ والحلم عن قدرة فضل من الكرم

وقال الحزيمى :

أرى الحلم فى بعض المواطن ذلة ∴ و فى بعضها عزا يسود صاحبه

وقال المتنبى :

إذ قيل مهلا قال للحلم موضع ∴ وحلم الفتى فى غير موضعه جهل

وقال :

فوضع الندى فى موضع السيف بالعلا ∴ مضر كوضع السيف فى موضع الندى

وقال الحزيمى أيضا:

كل حلم أتى بغير أقتدار ∴ حجة لاجىء إليها اللئام

و قال المتنبى

من الحلم أن تستعمل الجهل دونه ∴ إذا اتسعت فى الحلم طُرْقُ المظالم

حديث عن جو المعارك :

قال بشار :

خلقنا سماءً فوقنا بنجومها ∴ سيوفا ونقعا يقبض الطرف أقتما

و قال :

كأن مسار النقع فوق رءوسنا ∴ وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

و قال بعضهم :

نسجت حوافرها سماءً فوقنا ∴ جعلت أسنتنا نجوم سمائها

وقال المتنبى

يزور الأعادى فى سماء عجاجة ∴ أسنتها فى جانبيها كواكب (١)

و قد أشاد النقاد ببيت بشار الثانى لدقة تصويره لجو المعركة وفضلوه على ما سواه فى هذا المعنى .

الصبر :

إذا ما نزلت بالمرء كارثة فخير ما تقابل به الكوارث الاعتصام بالله وسؤاله الصبر . والجلد . فأما الجزع والمبالاة فمما لا يفيد شيئا . والشعراء فى معنى الصبر قد يتأثر بعضهم ببعض

يقول الخريمى :

صبرت فكان الصبر خيرمغبة ∴ و هل جزع أجدى علىَّ فأجزع

وقال المتنبى

وهان فما أبالى بالرزايا ∴ لأنى ما انتفعت بأن أبالى

وحول معنى التجلد والصبر وأن سنى الذكريات بالصبر تنتهى وينتهى أهلها و لا يبقى إلا الذكريات التى تبدو وكأنها مجرد أحلام.

يقول أبو تمام :

ثم أنقضت تلك السنون وأهلها ∴ فكأنها و كأنهم أحلام

و فى هذا المعنى يقول المتنبى :

نصيبك فى حياتك من حبيب ∴ نصيبك فى منامك من خيال

فما أقصر زمن الخيلات التى تتراءى للمرء فى خياله وشبيهها فى القصر . أوقات الهناء التى يقضيها المرء فى حياته مع أحبته . فإن أتت الشدائد فخير معوان عليها الصبر و التجلد !!

---

(١) الوساطة / ٣١٣ .

الانفراد بالأمجاد

قد يبالغ الشعراء كثيرًا فى إظهار مـآثر ممـدوحهم و التغنـى بأمجادهم حتى يَدَّعوا زورًا أنهم متوحدون بلا نظير أو شبيه ...!

يقول البحترى :

كل الذى تبغى الرجال تصيبه ∴ حتى تبغـى أن تـرى شَـرْوَاهُ

والشروى المثل . وهو يريد أن كل ما يريده الرجال يصيبونه . إلا إذا أرادوا للممدوح مثلاً فهذا ما لا يكون . ومن طلب مثله طلـب المحال .

وللبحترى فى مثل هذا المعنى

ولإن طلبت شـبيهه إنـى إذا ∴ لمكلف طلـب المحـال ركـابى

و قد أخذ المتنبى عن البحترى فقال :

وما عَزَّه فيهـا مـرادٌ أراده ∴ وأن عز إلا أن يكون لـة مثـل

ولكنة زاد عن البحترى لانة أشار إلى وجهين من المديح أحدهما وصفه بالاقتدار والتمكن مما يريد . والثانى توحـده بالفضـل عـن الأمثال. وقد اقتصر على وصفة بالاقتدار حين قال :

أمريد مثل محمد فى عصـره ∴ لا تبلنا بِطِـلاب مـا لا يلحـق

ووصف أبو تمام سيف ممدوحه بأنه قاطع بتار ثم شـبهه بـذلك السيف الذي قطع الكثيرين من الأعداء . ثم انثنى فتقطعا .

يقول:

وما كنت إلا السيف لاقى ضريبة ∴ فقطعهـا ثـم انثنـى فتقطعـا

وفى هذا المعنى يقول أبو الطيب :

وهول كشفت ونصل قصـفت ∴ ورمـح تركـت مبـادا مبيـدا

ثم أعاد وزاد فجعل الحديد مقتولا فقال :

قتلت نفوس العدا بالحديد ∴ د حتى قتلت بهن الحديدا

فاستعار القتل للحديد وكانة يصنع ما يصنعة أبو تمام فى قولة :

وما مات حتفمات مضرب سيفة ∴ من الضرب واعتلت عليه القنا السمر

ثم كرر المعنى وزاد زيادة لطيفة فجعل السيف مقتولا فى جسد العدو القتيل . وجعل للسيوف آجالاً. والواقع يشهد بأن كل شئ فىالدنيا له أجل .

يقول أبو الطيب :

القاتل السيف في جسم القتيل به ∴ وللسيوف كما للناس آجال

وزاد فى مبالاغاته اللطيفة فى الوصف بالشجاعة . فقال إن السيف قد توارى فى العدو القتيل المعفر بالتراب كتوارى الضب فى جحره خوفا من الصائد . يقول :

ومنعفر لنصل السيف فيه	∴	**توارى الضب خاف من احتراش**

يقول القاضى الجرجانى رحمه الله تعالى : وكأنه (المتنبى) اقتدى فى ترك السيف فى جسم القتيل بقول الحصين بن الحمام :

نطاردهم نستنفد الجرد كالقنا	∴	**ويستنفدون السمهرى المقوما**

وكأنه يريد إنا نطعنهم فتبقى الرماح او أعاليها فى أجسامهم إذا أعجلونا بركض الخيل عن انتزاعها . وقالة امرأة من بنى عامر :

تعرفكم جزر الجزور رماحنا	∴	**ويمسكن بالأكباد منكسرات**

قيل : إن الرماح تنكسر فى المقتولين فتتعلق بالأكباد عواليها.

وقد أبدع المتنبى فى حديثه عن الأكباد التى اندقت فيها الرماح فكأنها

أدركت منها ثأرًا وهو تصوير عجيب فأنى للكبد أن يدق أو يصدع الرمح ؟ يقول :

يقول :

ونالت ثأرها الأكباد منه ∴ فأولته إندقاقا أو صدوعا

التأثر فى معني الجود

ذكر النابغة الذبياني أن كل ماله من عطاء الممدوح فكيف ينسي شكره . يقول :

لما أغفلت شكرك فانتصحني ∴ فكيف ومن عطائك جلُّ مالي

ثم فصل المعني فذكر أن ماله و سلاحه و مركبه و ما في يده كل ذلك مجرد فضل أتاه من ممدوحه البالغ الجود ، يقول :

وإن تلادي إن نظرت وشكتي ∴ ومُهْرِي وما ضمتْ إليَّ الأنامل
حباؤك و العيس العتاق كأنها ∴ هجان المها تُحْدَي عليها الرحائل

فهذه الاشياء كلها من هبته إبل بيض و مهر قوي و مال في يده إنه الجود البالغ إن صدق الشاعر فيما قال .

أما المتنبي فقد تأثر تأثرا لا شك فيه بقول النابغة و لكنه زاد وملح وأحسن وشرح وبين أن ممدوحه أعطاه كل شئ فإذا خرج من داره خرج إلي أرض أعطاه إياها . وفي ثياب كساه إياها . وعلي فرس موهوب منه . ومن بيت هو بعض هباته وبسلاح هو من عنده أيضا وبعبيد روم هم من هباته أيضا إنه يعيش في جوده و كرمه الشبيه بجود الغمام إنه لشئ عجيب أن يحيا الشاعر شحاذا إلي هذه الدرجة وأعجب منه أن يقول في تفصيل عجيب :

أسير إلي إقطاعه في ثيابه ∴ علي طِرْفِهِ من داره بحسامه

وما مطر تنبه من البيض والقنا ∴ و روم العبدى هاطلات غمامه

و ما قاله النابغة الذبياني أدق و له فضل السبق !!

ثبات الذاتيات فى الإنسان

كما لا يستطيع المرء أن يخرج من جلده فكذلك لا يستطيع أن يغير فطرته التي فطره الله تعالي عليها فمن حاول ذلك غلبته فطرته وما بالذات لا يتخلف يقول حاتم :

ومن يبتدع ما ليس من ضيم نفسه ∴ يدعه و يغلبه علي النفس خيمها

و يقول الأعور الشنى :

ومن يقترف خلقا سوي خلق نفسه ∴ يدعه وتغلبه عليه الطبائع

و قال ابراهيم بن المهدي :

من تحلي شيمة ليست له ∴ فارقته و أقامت شيمته

و قد تأثر المتنبي بما قبله فقال:

و أسرع مفعول فعلت تغيرا ∴ تكلف شئ في طباعك ضده [1]

فلو فعل امرؤ شيئاً متكلفا غير ما طبع عليه فإنه لا يدوم و لا يبقي بل يتغير و يتلاشى بسرعة و ما أشبه هذا البيت بقول الأعور الشني :

وأقوم أخلاق الفتي ما نشا بها ∴ وأقصر أفعال الرجال البدائع !!

والمطلع الثانى هو بيت أبى الطيب بتمامه . ومن ثم يكون بيت الأعور أبلغ !!

---

(١) ديوان المتنبى ج ٢ ص ١٩ .

توطين النفس علي المآسي :

نصيب المرء من الأوجاع و المآسي في الغالب متعادل مع مواهبه التي تفضل الله تعالي بها عليه فكلما زادت مواهبه كلما زادت أحزانه و بلاواه . و يستمر علي هذا الوضع الحزين حتي يصبح العلقم بالنسبة له شيئا معتادا في صباحه و مسائه و قيامه و قعوده والعياذ بالله تعالي .

يقول المتنبي :

فلا يتهمني الكاشحون فانني ∴ رعيت الرَّدَى حتى حلَتْ لي عَلاقِمُهْ

و هو متأثر بقول الآخر :

وفارقت حتى ما أحن إلي هوي ∴ وإن بان جيران علي كرام

وقد جعلت نفسي علي النأي تنطوي ∴ وعيني علي فقد الحبيب تنام

وهو معني قوله حتى حلت لي علاقمه .

ومثله قول المؤرج بن عمرو :

رُوِّعْتُ بالبين حتى ما أراعُ له ∴ و بالتفرق من أهلي و جيراني

أو قول الخزيمي :

لقد وقرتني الحادثات فما أري	∴	**لنازلة من ريبها أتوجع**

أما المتنبي فقد استفاد ولكنه زاد ، فقد شرح وفصل تفصيلا بيانيا رائعا حينما بين أن زمانه رماه بالكوارث التي تجمعت علي قلبه فغطته بكثرتها وهكذا فإذا ما ضربته كارثة جديدة . والعياذ بالله تعالي. فلن تستطيع الوصول إلي قلبه بل تتصادم مع كوارث أخري وهكذا تحطم الكوارث بعضها بعضا و لله الحمد يقول :

رماني الدهر بالأرزاء حتى ∴ فؤادي في غشاء من نبال

فصرت إذا اصـــابتني ســـهام ∴ تكسرت النصال علـــي النصـــال

فلله دره من رجل جلود محسود طول حياته حتي قتل مظلومـــا رحمه الله تعالي بمشيئته !!

ومن الكوارث أيضا أن تعيش قريبا من أهل الضغن والحسد وأن يبعد عنك المخلصون و الأحباب و في هذا المعني يقول الطرماح بـــن حكيم :

يفرق منا من نحب اجتماعـــه ∴ و يجمع منا بين أهل الضـــغائن

ويقول آخر :

عجبت لتطويح النوي من أحبه ∴ و إدناء من لا يستلذ لـــه قـــرب

وأصله لمضرس بن ربعي :

لعمرك إلي بالخليل الذي لـــه ∴ علـــي دلال واجـــب لَمُفَجَّـــعُ

و إني للمولي الذي ليس بنافعي ∴ و لا ضائري ما ســـاءه لَمُمَتَّـــعُ

أما المتنبي فقد أحسن وأطاب حينما جعل عادة الأيـــام تقريـــب الحاسدين منه ووجوهم بغيضة وكلماتهم مسمومة ونظـــراتهم كالحـــة ومن عادتها أيضا إبعاد الأحباء ثم يتمني أن تغلط الأيام فتنصفه ولـــو مرة ، يقول :

أما تغلط الايام فِىّ بـــأن أري ∴ بغيضا تنائي أو حبيبـــا تقـــرب

شكر المعروف :

من شيم الكرام أن يشكروا علي المعروف يقول علي بـــن أبـــي طالب ﷺ استعظم ما أتاك و إن كان صغيرا و استصغر ما فعلت وإن كان عظيما و الشعراء الكثيرون منهم شاكرون مثنون و بعضهم غير ذلك يقول يزيد المهلبى في الشكر والعرفان :

إن يعجز الدهر كفي عن جزائكم ∴ فإنني بالهوى و الشكر مجتهد

ويقول المتنبي :

لا خيل عندك تهديها و لا مال ∴ فليسعد النطق إن لم تسعد الحال

وأصله قول الأول :

يجزيك أو يثني عليك وإن مَنْ ∴ أثني عليك بما فعلت كمن جزي ٠

ومقابلة الحسنة بمثلها أو شكرها مبدأ إسلامي عظيم !!

تركيب البيت من أفعال :

إن تركيب البيت من أفعال أمر شاق علي الشاعر. ومن الصعوبة بمكان أن تجئ الأفعال موزونة وزنا عروضيا سليما ولكن هذا الجهد مع ما فيه من مشقة . لا يشكر عليها الشاعر. لأنه في الغالب يكون غامض المعني ثقيل التلفظ فيكون معيبا بالغرابة وتنافر الكلمات يقول أبو العميثل الأعرابي :

أصدق وعِفَّ وَبرَّ واصبر واحتمل ∴ واصفح ودار وكاف وابذل واشجع

ويقول المتنبي :

أقل أنل إن صن أحمل عل سَلِّ أَعِدْ

زد هَشَّ بَشَّ هَب اغْفر أَدْنِ سُرَّ صِلِ

و أصل هذه الطريقة قول امرئ القيس :

أفاد وجاد وساد وزاد ∴ وقَاد وعَاد وأفْضَلا

الشجاعة :

إن الجبن و الفرار يوم اللقاء موت معنوي للمقاتل و إن الإقدام والشجاعة حتى لو لحقها الموت فإنه حياة أبدية له و في هذا المعني

يقول الحصين بن الحمام :

تأخرت أستبقي الحياة فلم أجد ∴ لنفسي حيـاة مثـل أن أتقـدما

و قال المتنبي :

فحب الجبان النفس أورده التقي ∴ و حب الشجاع النفس أورده الحربـا

خير حياة للفتي تحت ظلال السيوف و لكن الجبناء يتظـاهرون بالتقي فرارا من الجهاد و حبا للنفس و الشجعان يردون المهالك !!

الشك القاتل :

إذا استولي الشك علي الإنسان أفسد عليـه حياتـه و إذا اتهـم الإنسان من حوله بالمفاسد فكأنه يطلب إفسادهم وربما يكون مخطئـا ويكون المتهم بريئا يقول بعضهم :

و ما فسدت لي يشهد الله نيةٌ ∴ عليك بل استفسدتني فـاتهمتني

أما المتنبي فقد تأثر بهذا المعني و لكنه أحسـن كـل الإحسـان عندما بين أن المرء إذا ساء فعله ساءت ظنون وصدق الأوهام التـي يعتادها و ربما يقع في خطأ قاتل فيعادي محبيه بقول مبغضيه وهكـذا يعيش في ليل مظلم من الشك فيشك في أقرب الناس اليه يقول :

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه ∴ وصدَّق ما يعتـاده مـن تـوهم
وعادي محبيه بقول عداتـه ∴ و أصبح في ليل من الشك مظلم

حسن المخبر خير وأبقي :

يهتم عقلاء الناس بخلق معاشريهم فيميلون إلي حسـن المخبـر وفي النهاية يجئ حسن المظهر الذي قد يكون سما زعافا لا خير فيـه بل فيه المضرة والهلاك والعياذ بالله تعالي وقد بين بعض العـرب أن أحسن الجسوم لا خير فيه إلا بحس العقول يقـول بعضـهم ونسـب

للفرزدق :

ولا خير في حسن الجسوم ونبلها ∴ إذا لم تزن حسن الجسوم عقول

و قال عمر بن معد يكرب :

لـــيس الجمـــال بمئـــزر ∴ و اعلـــم و إن رُدِّيـــت بُـــرْدا
إن الجمـــــال معـــــادن ومناقـــب أورثـــن مجـــدا

فليس الجمال بالثياب بل هو معادن و مناقب تجعل المرء يعـيش بين الناس ماجدا كريما و بهذا فتضخم أجسام الرجال ليس فخرا لهـم ولكن الفخر كل الفخر في الفضائل النفسية يقول العباس بن مرداس أو ربيعة بن ثابت الرقي :

فما عظم الرجال لهم بفخـر ∴ ولكـن فخـرهم كـرم و خيـر

ويقول المتنبي :

وما الحسن فى وجه الفتي شرفا له ∴ إذا لم يكن في فعله و الخلائـق

و قد وسع المتنبي دائرة القول في مدح المثل العليا و الصـفات النفسية حتى عندما تحدث عن الخيول فبين أن من يقف في حسنها عند المظاهر فقط فما عرف الحسن يقول :

إذا لم تشاهد غير حسن شياتها ∴ و أعضائها فالحسن عنك مُغَيَّب

وأشار إلي أن العقلاء يحبون في الناس الفضـائل و الجـاهلون يحيون علي المظاهر الجسدية التي سرعان ما تتلاشي وإن بقيت فانها لا تعادل قبح النفوس يقول :

يحب العاقلون علي التصـافي ∴ وحب الجاهلين علـي الوسـام

والإنسان الماجد الكريم المخبر إذا مات ورثة بنوه و نساؤه إنهم يرثون ماله و أفضل منه أن يرثوا فضله و نبله و كريم خصاله.

يقول جابر بن حيان:

وإن يقتسم مالي بَنِيَّ ونِسْوَتِي ∴ فلم يقتسموا خلقي الكريم ولا فضلي

وأبو تمام يقول :

وانفح لنا من طيب خيمك نفْحةً ∴ إن كانت الأخلاق مما يوهب

ويري المتنبي أن مريد كرم الكريم قد يعطي ما يريد. أما مريد المجد فإن سلمه صعب و المعالي لا توهب !!

يقول :

اذا طلبوا جدواك أعْطُوا وَحُكِّمُوا ∴ وإن طلبوا المجد الذي فيك خيبوا

ولو جاز أن يحدوا علاك وهبتها ∴ ولكن من الأشياء ما ليس يوهب

تضارب الأقوال والأفعال :

من أقبح الأشياء في الإنسان الكذب وتضارب قوله مع فعله ويزداد قبحه إذا ظهر جوده باللسان فقط فان طلبت منه شيئا راح يقدم شتي المعاذير يقول أبو تمام :

مَلْقي الرجاء وملقي الرحل في نفر ∴ الجود عندهم قول بلا عمل

و يقول :

وأقل الأشياء محصول نفع ∴ صحة القول و الفعال مريض

وقد تحدث المتنبي في هذا فبين أنه نزل علي قوم كذابين لا يعطون ضيفهم حقه ولا يسمحون له بالرحيل إن جودهم من اللسان والمعروف أن الجود من اليد ثم دعا الله تعالي أن يهلكهم ويهلك جودهم يقول :

إني نزلت بكذابين ضيفهم ∴ عن القرى و عن الترحال محدود

جود الرجال من الأيدي وجودهم ∴ من اللسان فلا كانوا و لا الجود

ويقول :

واجز الأمير الذي نعماه سابغة ∴ بغير قول ونعمي الناس أقــوال

و قد شبه الباخلين بالأغنام فقال :

أري أناسا ومحصولي علي غنم ∴ وذكر جود ومحصولي علي الكَلِمِ

و يقول السيد الحميري :

قد ضيع الله ما جمعت من أدب ∴ بين الحمير وبين الشاء والبقــر

ويروي للمخيم الراسبي :

وقد اعتمدوا فيه قوله عز شأنه : ﴿ **أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ**﴾

ويقول البحتري :

علي تحت القوافي من مقاطعها ∴ وما علي إذا لــم تفهــم البقــر

وقال أبو تمام :

لا يدهمنك من دهمائهم نفــر ∴ فــان جلهــم بــل كلهــم بقــر

ومازال العقلاء في كل زمن يسمون البليد الغني حمارا. أو بقرة. وثورا. أو تيسا. حتى شاع ذلك علي ألسنة العامة والنساء والصــبيان في كل جيل ولذلك فلا ينبغي أن يتهم أحد بالسرقة في هذا المعني.

أما صاحب الهمة فيقال عنه إن همته في النجوم فان ابتلي مــع هذا بحظ تعيس فعزاؤه مثل قول أبي تمام :

همة تــنطح النجــوم وجــدُّ ∴ آلف للحضيض فهــو حضــيض

وقول المتنبي :

أبدا أقطــع الــبلاد و نجمــي ∴ في نحوسى و همتي في ســعود

و لله في خلقه شئون و أسرار كبار .

الموت خير من الحياة الذليلة :

إذا عاش المرء ذليلا مهانا فان الموت الكريم خير من هذه الحياة المهينة يقول بشار :

وللموت خير من حياة علي أذي ∴ يضيمك فيها صاحب وتراقبُهُ

وقال المتنبي :

عش كريما أو مت وأنت عزيز ∴ بين طعن القنا وخفق البنود

و قال الاهتم بن سنان :

وما كل من يخشى القتال بميت ∴ ولا كل من يرجو الإياب بسالم

و قال زياد الأعجم :

مات المغيرة بعد طول تعرض ∴ للقتل بين أسنة و صفائح

والآجال بيد الله تعالي .

والموت قد يعدو النفس التي لا تهابه

ويصيب النفس الحريصة علي أن تعيش

يقول المتنبي :

وقد يترك النفس التي لا تهابه ∴ ويخترم النفس التي تتهيب

احتقار الحاسدين :

خير ما ينبغي أن يقابل به الحاسدون أن يحتقروا. وألا يقام وزن لكلامهم أبدا . فان أهدافهم خبيثة منها أن يجروا الكامل إلي نقائصهم حتى يتسأوى معهم في السوء و المهانة و ما أحسن قول الأعور الشني :

إذا صبحتني من أناس ثعالب ∴ لأدفع ما قالوا منحتهم حَقْراً

وقال المتنبي :

ويحتقر الحساد عن ذكره لهم ∴ كأنهم فى الخلق ما خلقوا بعد

وقال :

أبدو فيسجد من بالسوء يذكرني ∴ فلا أعاتبه صفحا وإهوانا

ويشير المؤرخ التغلبي إلي أن المغتاب لا يترك شرفا ولا عرضا وعند اللقاء يقشعر ويعانق وكلام لين وسره قبيح. ويحيى عند اللقاء. ويأكل لحم صاحبه إذا خلا .

يقول سويد بن كاهل :

ويحيينى إذا لاقيته ∴ وإذا يخلو له لحمي رَتَع

و يقول المؤرج التغلبي :

يغتاب عرضى خاليا ∴ وذا تلاقينا اقشعرا
يبدي كلاما لينا ∴ عندي ويخفي مُسْتَسِرًّا

ألا بئست الخليقة أن يكون الرجل ذو وجهين !!

خير للمرء أن يعاب ولو بعيب واحد :

إذا تكاملت نعم الله علي امرئ اقتحمته أعين الحساد. واذا تم الأمر بدأ في النقصان . ولذلك دعا الشعراء أن يكون للمرء ولو عيب واحد فرارا من الحسد يقول بعضهم :

شخص الأنام إلي جمالك فاستعذ ∴ من شر أعينهم بعيب واحد

وقال :

قد قلت لما تكاملت وغدت ∴ أفعاله زينا من الزين
ما كان أحوج ذا الكمال إلي ∴ عيب يوقيه من العين

وقال المتنبي:

كأن الردي عاد علي كل ماجد ∴ إذا لم يُعَوِّذْ مجده بعيوب

وقال :

فقل له لست خير ما نَثَرَت ∴ وإنما عَوَّذتُ بك الكرما

خوفا من العين أن تصاب بها ∴ ثم أصاب عَيْنا بها يُعَان عَمَى[1]

مع حديث المعارك :

و مما يتصل بالحديث عن المعارك قول مسلم بن الوليد [2] .

في عسكر تُشْرِقُ الأرض الفضاءُ به ∴ كالليل أنجم القضبانُ والأسَلُ

وقد أخذ منه المتنبي فقال :

وكأنما كُسي النهار به دُجَي ∴ ليل وأطلعت به الرماح كواكبا

وذلك علي تشبيه الجيش بالليل في سواده وكثرته وتشبيه الرماح بالكواكب في الإشراق. وقد نقله المتنبي إلي التشبيه المركب فقال :

يزور الأعادي في سماء عجاجة ∴ أسنته في جانبيها الكواكب

وهذا من روائع تشبيهات التمثيل عند البلاغيين .

أقدار الرجال :

أقدار الرجال مختلفة . شديدة التباين . فقد يوجد رجل واحد من الأفاضل يغني عن ألف رجل أو أكثر ومن الرجال من لا يساوي واحدا علي ألف من رجل من الأفاضل. وفي هذا المعني يقول البحتري :

ولم أرى أمثال الرجال تفاوتت ∴ لدي المجد حتى عُدَّ ألف بواحد

---

(١) الوساطة ص ٣٥٨ .

(٢) ديوان مسلم ص ٧١ .

و قد استفاد منه المتنبي فقال :

لما وزنت بك الدنيا فَملْتَ بها ∴ وبالورى قل عندي كثرة العَـدَدِ

والمرء إذا أوتي إحساسا متميزا عرف أقـدار النـاس. وفهـم الأجاود الكرام من الأساود اللئام .

يقول البحتري :

وإن مُقَامِي حيث خَيَّمتُ مِحْنَةٌ ∴ تخبِّر عن فهم الكـرام الأجـاود

و تحدث المتنبي عن حاسته المرهفة التي بهـا يعـرف أقـدار الناس فقال :

أنا الذي بين الآل لـه الـ ∴ أ قدار والمـرء حيثمـا جعلـه

و قد أشار أشجع السلمي إلي مكانة الممدوح وإنه يساوى كتيبـة من الجند فقال :

كأن عليها من مخافة جعفـر ∴ كتائبـه مبثوثـة و جحافلـه

ومن الناس من يصيب خوفه أعداءه بالهزيمة قبل قدومه . بـل بمجرد أن يقال إن القائد الفلاني هو قائد الجيش و من هؤلاء الصحابي الجليل خالد بن الوليد والبطل المسلم صلاح الدين الأيوبي ونحوهمـا رضي الله عنهما .

و قديما قيل :

والناس ألف مـنهم كواحـد ∴ وواحد كـالألف إن أمـر عنـي

يقول أبو تمام:

لو لم يزاحفهم لـزاحفهم لـه ∴ ما في صدورهم مـن الأوجـال

و قد أخذه المتنبي فقال :

بعثوا الرعب في قلوب الأعادي ∴ فكـأن القتـال قبـل التلاقـي

وقال :

قد ناب عنك شديد الخوف واصطنعت ∴ لك المهابة ما لا تصنع البُهُمُ

وقال :

تغير عنه علي الغارات هيبته ∴ وما له بأقاصي البَرِّ إهمالُ

و القائد المسلم يلقي الله له في صدور أعدائه الرعب فينهزمون في أول لقاء : ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾(١).

الصداقة المكذوبة

من الناس صنف خبيث في حقيقته لا صديق له ولا يحب إلا الدرهم والدينار ويحاول في الظاهر أن يبدو صديقا لبني الناس جميعا فيوزع الابتسامات الصفراء المصطنعة ذات اليمين وذات الشمال. أسلوب هو عين أساليب اليهود في تعاملهم مع الناس . ولكن هذا المنافق لا يستطيع مهما عَنَّى نفسه بالكذب إلا أن يكون مفضوحا فالطبع يغلب التطبع .

يقول عمرو بن الأهتم :

إذا المرء لم يحببك إلا تكرُّها ∴ يَدُلُّك من أخلاقه ما يُغَالِبُ

وأساسه قول زهير:

ومهما تكن عند امرئ من خليقة ∴ وإن خالها تخفي علي الناس تُعْلَمِ

وقال المتنبي :

وللنفس أخلاق تدل علي الفتي ∴ أكان سخاء ما أتي أم تساخيا

و العاقل من أَصَّل المثل العليا فى نفسه لتكون أصيلة لا متكلفة!!

---

(١) سورة الأنفال آية ١٠ .

رحابة الصدر :

من محاسن الرجل أن يكون حليما رحب الصدر يكظم غيظه ويعفو عن الناس و يتجاهل إساءاتهم .لأنها وليدة حقد شديد لنعمة أنعم الله تعالي بها علي المحسود والحسد داء الجسد وقديما قيل ما من ظالم أشبه بمظلوم من الحاسد وقد مدح أبو تمام ممدوحه برحابة الصدر رحابة أوسع من رحابة الأرض و لو كانت الأرض واسعة كسعة صدر الممدوح لما ضاق بلد علي أهله .

يقول :

وَرُحْبُ صدر لو أنَّ الأرض واسعة ∴ كَوُسْعِه لم يضق عن أهله بلدُ

و تحدث البحتري عن رحابة صدر ممدوحه بأنه أوسع من رحابة الفضاء . يقول :

كريم إذا ضاق الزمانُ فإنه ∴ يَصِلُ الفضاء الرَّحْبُ في صدره الرحب

و قال المتنبي :

شيم الليالي أن تَشَكَّكَ ناقتي ∴ صدري بها أفْقَىَ أم البيداءُ

و لهذا فان مدح الحلماء حق . ومدح الحمقي كذب وطلب للمال فقط ولكن الافراط في المديح أقرب شئ إلي الهجاء .

يقول أبو الطيب :

وإن مديح الناس حقٌّ وباطلٌ ∴ ومدحك حقٌّ ليس فيه كِذَابُ

و يقول أبو تمام :

ولم أمْدَحْكَ تفخيما لشعري ∴ ولكني مدحت بك المديحا

لا قيمة للاعتماد علي الأحساب وحدها :

العصامية نسبة إلي عصام الذي قيل فيه :

نفس عصام سودت عصاما ∴ وعلمته الكَرَّ والإقداما

والمرء قد يرث عن أبيه أمجادا وهذا شئ طيب إلي أبعد الغايات. فأبناء الأماجد في الغالب ماجدون . الا من أخلد إلي الأرض واتبع هواه - وسليل الأمجاد يجد القدوة الحسنة في آبائه وأجداده فيحاول أن يتخلق بأخلاقهم ليكون مثلهم . ولكن لا ينبغي لسليل الأمجاد أن يكتفي بما بناه آباؤه من أمجاد فإن فعل ذلك . فلا ينتظر الا النقص .

إن المجد القديم لابد أن يصاحبه مجد جديد يقوي المجد التليد- ولا يكتفي بالقديم فقط إلا مضعوف مغفل !!

يقول الخزيمى في هذا المعني :

إذا أنت لم تجم القديم بحادث ∴ من المجد لم ينفعك ما كان من قَبْلُ

وقال البحتري :

ولست أعتد للفتي حسبا ∴ حتي يري في فعاله حَسَبُهُ

وقال المتنبي :

إذا لم تكن نفس النسيب كأصله ∴ فما الذي يُغنِي كِرَامُ المناصب

ويقول المتوكل الليثي :

لسنا و إن كرمت أوائلنا ∴ يوما علي الأحساب نتكل
نبني كما كانت أوائلنا ∴ تبني ونفعل مثل ما فعلوا

ويقول المتنبي :

ولست بقانع من كل فضل ∴ بأن أعزي إلي جد همام

وأما إذا ولد الأمجاد لئيما فتلك كارثة لهم تنغص عليهم حياتهم !! ... نعم الإله علي العباد كثيرة و أجهلهن نجابة الأولاد .

ويقول بعضهم :

أبوك أبٌ حـر وأمـك حـرةٌ ∴ وقد يلد الحـران غيـر نجيـب

ويقول :

لئن فخرت بآباء لهم شـرف ∴ لقد صدقت و لكن بئس ما ولدوا

و قال أبو الطيب :

أري الأجـداد يغلبهـا كثيـر ∴ علـي الأولاد أخـلاق اللئـام

و انحراف الأولاد قد يكون ابتلاء لآبائهم أوتطهيرا لهم. و قد يكون عقوبه . ومن المفيد جدا إبعاد الأبناء عن قرناء السوء وأبناء المهن الهابطة ! إذا بدا عليهم انغماس في مساوئ الأخلاق !!

لا خير فى صداقة الأغبياء :

حذر علي بن أبي طالب رضي الله عنه ابنه الحسن عن صداقة من لا خير فيه فقال له : يا بني اياك و مصادقة الكذاب فإنه يقرب عليك البعيد ويبعد عنك القريب . واياك ومصادقة الاحمق فإنه يريد أن ينفعك فيضرك وإياك ومصادقة البخيل فإنه يبيعك بالتافه. وقد أخذ الشعراء هذا المعني الكريم . ثم أخذه بعضهم عن بعض .

يقول صالح بن عبد القدوس :

عدوك ذو العقل خير من الصـ ∴ ديـق الوامـق الأحمـق

وقال المتنبي :

ومن العداوة ما ينالك نفعـه ∴ ومن الصداقة ما يَضُـرُّ ويُـؤْلِمُ

إن صداقة الكرماء . خير ما فى الدنيا . قال أحدهم للمأمون :

وإني لمشتاق الي ظل صاحب ∴ يروق ويصفو إن كدرت عليه

فقال له خذ مني الخلافة وأعطني ذلك الصاحب. إن لقاء الكرماء يسر الخاطر . أما لقاء اللئيم فقد قال عنه الزمخشري :

رب ذورة زائر ∴ أشد من ذأرة زائر

و فى لقاء الكرام وطلب جودهم يقول أبو بكر الخوارزمي :

واذا طلبت الي كريم حاجة ∴ فلقاؤه يكفيك والتسليم
واذا رأك مُسَلِّماً عرف الذي ∴ جمَّلْته فكأنه مَلْزُومُ

وقال المتنبي :

وفي النفس حاجات وفيك فطانة ∴ سكوتي بيان عندها و خطابُ

وقد شبه الغبي بالثور والحمار لا خير فى صداقة أي منهما

يقول خداش بن زهير:

ولا أكون كمن ألقى رِحَالَتُهُ ∴ علي الحمار وخلَّى صهوة الفرس

وقد زاد المتنبي واحسن فقال :

من ركب الثور بعد الجوا ∴ د أنكر أظلافَهُ والغبَبْ

الا أن ذكر الركوب هنا فيه جفاء ولا يستريح الذوق السليم اليه .

هذا ووقوع شر اللئيم أسهل من انتظاره وحتى الآن يقول العقلاء : (وقوع البلاء اسهل من انتظاره) ويقول البحتري :

لعمرك ما المكروه الا ارتقابه ∴ وابرح مما حَلَّ ما يُتَوقَّعُ

و يقول المتنبي

كل ما لم يكن من الصعب فى الأ ∴ نس سَهْلٌ فيها إذا هو كانا

ان المرئ يفزع كثيرا من المصائب فاذا ما وقعت وطن نفسه علي التعايش معها وقديما قيل :

" كل شئ يولد صغيرا ثم يكبر الا المصيبة فإنها تولد كبيرة ثم تتصاغر يوما بعد يوم تبعا للجلد و الصبر و لهذا قال ﷺ " انما الصبر عند الصدمة الأولي "

ربط المجد بالمال

حكي الجاحظ قول حكيم :

" اللهم ازرقنى حمدا ومجدا . فان لا حمد الا بفَعَال . ولا مجد الا بمال " .

و يقول بن المعتز :

يا رب جود جَرَّ فقر امْرِئٍ ∴ فقام فى الناس مقام الذليل

و يقول آخر

ذريني أطوف في البلاد لَعَلَّني ∴ أصيب غِنَى فيه لذي الحق مَحْمَلُ
أليس عجيبا أن تلم مُلِمَّةٌ ∴ وليس علينا فى الخطوب مُعَوَّلُ

إن حسن الأحدوثة مرتبط بالفعل الجميل والجود بالمال لا ينفعك عنهما والغني قبيح في يد البخيل اللئيم كما أن الفقر قبيح مطلقا ويزداد قبحه اذا وقع على الجواد الكريم .

يقول المتنبي :

والغني في يد اللئيم قبيح ∴ قدر قبح الكريم فى الإملاق

ويقول :

وأتعب خلق الله من زاد هَمُّهُ ∴ وَقَصَّرَ عما تشتهي النَّفْس وَجْدُه
فلا مجد فى الدنيا لمن قل ماله ∴ ولا مال في الدنيا لمن قل مَجْدُه

وارتباط المجد بالمال قد يكون صحيحا اذا احتاج المسلم الى جهاد بيد أن باب الأمجاد واسع وهو مفتوح لصاحب المال أو

لأصحاب المواهب التى يجود الله بها على من يشاء .

الناس بأحلامهم لا بأجسامهم :

لاقيمة للشحم واللحم فى الجسد بجانب المواهب النفسية التى ترتبط بها جميع القيم الإنسانية .

وقديما قيل:

ياخادم الجسم كم تسعى لخدمته ∴ أتطلب الربح مما فيه خسران
أقبل على النفس واستكمل فضائلها ∴ فانت بالنفس لا بالجسم إنسان

و يقول حسان بن ثابت رضى الله عنه :

لابأس بالقوم من طول ومن قصر ∴ جسم البغال وأحلام العصافير

وقال العباس بن مرداس أو ربيعة الرقى :

فما عظم الرجال لهم بفخر ∴ ولكن فخرهم كرمٌ وخيرٌ

وقال المتنبى :

ودهرنا ناسٌ صغار ∴ وإن كانت لهم جثث ضخام
وما أنا منهم بالعيش فيهم ∴ ولكن معدن الذهب الرغام

وراء النقاد نقاد :

لقد زاد القاضى الجرجانى رحمه الله تعالى عن النقاد المعاصرين له واللاحقين به من بعده فى الحديث عن أبى الطيب احمد ابن الحسين المتنبى أعجوبة الدنيا وشاغل الناس . فقد تحدث عن حسناته وعن سيئاته . وعن سرقاته . ولا يخلو شاعر من أن يسرق معنى أو اكثر !!

أو أن يتوارد خاطره مع خواطر السابقين – والقاضى رحمه الله

تعالى قد تصفح الدواوين [١] ولاقى العلماء . وجمع الاشعار وبيض الأوراق . واتجه الى الله تعالى لكى يهديه الى ما غاب عنه من الشعر أو من المعلومات المفيدة . على مرور الأوقات . وطلب من الأمناء من بعده فى جميع العصور إن كان عندهم شئ فاته فى موضوع كتابه. أو فى السرقات الشعرية للمتنبى ، خاصة أن يلحقوه بجهد القاضى الجرجانى ، شريطة توخى العدالة والإنصاف . وتوفر البصيرة النافذة الناقدة ، ونصح النقاد بأن ورائهم نقادا ينظرون فى نقدهم ونصحهم بالبعد عن الهوى والعصبية. وأشار الى ما عيب على المتنبى فى ألفاظه ومعانيه ومذاهبه وأغراضه بشرط الاعتماد على الحجة لإزالة الشبهة وإذا أحسّ النقاد اذا عثروا على سرقات للمتنبى غير ما وضحه صاحب الوساطة واعتمدوا فى نقدهم الذوق وحده فقالوا : فى هذه الأشعار جهامة سلبتها القبول . وكزازة نفرت عنها النفوس فخلى الكلام من بهاء الرونق وحلاوة المنظر . وعذوبة المسمع. فأن الأذواق مختلفة . والمهم تحرى العدل والانصاف .

وأقول : على النقاد أن يذكروا قوله تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا اتقوا الله و قولوا قولا سديدا** ﴾ .

الكلام البليغ :

الكلام البليغ هو المطابق لمقتضى الحال الذى سلم من اختلاف الترتيب واضطراب النظم وسوء التأليف وهلهلت النسج والكلام البليغ يلمح فيه التقابل بين الألفاظ ومعانيها و يَسْبَرُ فيه ما بينها من نسب وخير الكلام ما صور المعنى ومن الحسن ما يفيده البديع. ومن الرونق ما يكسوه التصنيع إلا أن الاسترسال مع الطبع أفضل ، غير

---

(١) الوساطة ص ٤١٠ .

أن العصبية ربما كدرت صفو الطبع . وفَلَّتَ حد الذهن . ولَبَّسَتِ العلم بالشك و حَسَّنَت للمنصف الميل ومتى استحكمت ورسخت صورت لك الشيء بغير صورته . وحالت بينك وبين تأمله .وتخطت بك الاحسان الظاهر إلى العيب الغامض . وما ملكت العصبية . قلبًا فتركت فيه للتثبت موضعا . أو ابقت فيه للإنصاف نصيبا وهى سبيل المظالم نعوذ بالله منها :

قال تعالى : ﴿ **وسيعلم الذين ظلموا أيَّ منقلب ينقلبون** ﴾ .

صاحب الوساطة والمتنبى :

من المفيد للباحث الا يحكم على خصمه بالخطأ فى كل ما يذكره ولا يبعده عن الصواب فى أكثر ما يستحسنه والأبيات التى عيب بها أبو الطيب يراها صاحب الوساطة قابلة للقبول بشرط أن يوفى فيها التهذيب والا يبخث فيها التثقيف ويقول : لو فعل هذا لانقطعت السن العيب . وانسدت دونها طرق الطعن . ولدخلت فى جملة اخواتها ولجرت مجرى أغيارها . حتى يستغنى خصم أبى الطيب عن تمحل الحجج والمعاذير .

ويقول لكنا لم نجد شاعرا شمل الإحسان والإصابة والتنقيح والإجادة شعرة أجمع . بل قلما نجد ذلك فى القصيدة الواحدة والخطبة المفردة . إنه لا يجوز إحباط حسنات هذا الرجل بسيئاته إن وجدت . ولا يقبل التحامل على تقدمه فى الأكثر بتقصيره فى الأقل .

ولا يحسن الغض من عام تبريزة . بخاص تعذيرة . ويتساءل القاضى على بن عبد العزيز الجرجانى بمرارة فى دفاعة عن أبى الطيب . فيقول : إن الناس لم يغضبوا كثيرا لصور التعقيد ونحوه فى شعر الفرزدق وغيره . فلم هذه الغضبة المضرية على المتنبى .

وكيف لم يغضب الناس لقول الفرزدق :

وما مثله فى الناس إلا مملكا ∴ أبو أم حى أبـوه يقاربـة (١) .

وقوله :

ما بالمدينة دار غيرُ واحـدة ∴ دار الخليفـة إلا دار مروانـا

وقوله :

فإن التى ضَرَّتْك لو ذقت طعمها ∴ عليك من الأعباء يوم التخاصـم

وأشباه هذه الأبيات . فإن الناس وإن لم يحتملوا هـذا الـنظم . ولكنهم لم يتحاملوا فى العيب . ولم يتناولوا محاسنه بالغض منها فلم لا يسلك بأبى الطيب هذا المسلك ؟ إنه التعصـب المائـل . والتحامـل الجائر.

رأى صاحب الوساطة فى التعقيد والغرابة

التعقيد عند صاحب الوساطة وكل البلاغيين والنقاد تقريبا شـئ مرفوض . ولكن لا ينبغى أن يسقط ديوان الشاعر بتمامه مـن أجـل بيت معقد . ولو كان التعقيد وغموض المعنى يسقطان شاعرا . لوجب ألا يرى لأبى تمام بيت واحد فإنا لا نعلم له قصيدة تسلم من بيـت أو بيتين . قد وفر من التعقيد حظهما . حتى صارت بعض أبياته تتطارح فى المجالس مطارحة أبيات المعانى وألغاز المعمى .

وليس فى الأرض بيت من أبيات المعانى لقـديم أو محـدث الا ومعناه غامض مستتر . ولولا ذلك لكانت كغيرها من الشـعر . إلا أن الخفاء فى أبيات المعانى ليس من جهه غرابة اللفظ وتوحش الكـلام بل من جهه دقه نظمة ولطف معانية .

---

(١) الوساطة ص ٤١٦ .

إن وجود كلمة تتردد بين أكثر من معنى بلا مرجح للمعنى المراد فى بيت لهى الغرابة بعينها . وسيختلف الناس فيها ولن يصلوا الى اليقين أبدا ألا ترى الى قول تميم بن مقبل:

يادار سلمى خلاءً لا أكلفها ∴ الا المرانة حتى تعرف الدنيا

فقد تضاريت أقوال أئمة النظم فى المراد من المرانة . فقيل هى الدين . وقيل هى ناقتة . وقيل هى موضع دار صاحبته . وقيل هى الدوام والمرونة . وقيل هى هضبة من هضاب بنى عجلان . والدين هو الامر الذى كانت تعهده .

يريد لا أكلفها أن تبرح ذلك المكان الى المكان الآخر . وأيا ما كان فالكلمة مترددة بين هذه المعانى بلا مرجح للمعنى المراد ومن ثم حكمنا عليها بالغرابة . ولهذ فهى عن الفصاحة بمعزل . ومن التعقيد الشديد قول المعلوط يصف ناقته :

بل ربَّ محرارٍ تجاوزنَهُ ∴ ببسطة الهامة والمشفرين
مأهولة الأرض إذا أصبحت ∴ مجدبة الحيزوم والمرفقين

فالبيت الأول واضح المعنى . وأما الثانى فلا يعلم الا وحيا أو سماعا . ولو بلغ طالبه فى علم العرب كل مبلغ وحمل على فكره فوق الطاقة . وإنما معناه أن هذه الناقة اذا أصبحت وانقادت . فان رءوس الابل عند رجليها . لأنها أقوى على السير منها . وصدرها خال لم تلحق بها ناقة لقصورهن عنها .

وكذلك قول الآخر :

فُجنبتَ العوار أبا زينب ∴ وجاد على محلتك السحاب[1] .

---

(١) الوساطة ص ٤١٩ .

فقد يظن أن البيت دعاء للمخاطب بالسقيا لأرضه . على حين أن مراد الشاعر الدعاء عليه بالجدب . وأن يهلك الله إبله . فلا يملك منها ما يعار عليه . وهو يدعوا أن تجود السحاب على أرضة . وهو فقير. فيشتد أسفة على ما ضاع من ماله . إذا رأى الأرض مخصبة . وسائمة الحى راعية .

وقول الآخر :

وانى لظلاَّم لأشعث بائس ∴ عرانا ومقدور يرى ماله الدهرُ
وجار قريب الدار أوذى جناية ∴ بعيد محل الدار ليس له وفر

فقد وصف نفسه بأقبح الصفات . وأضاف اليها أشنع المظالم . هذا ما يُظَنُّ لأول وهله . ولكنه يقصد أنه يظلم ناقتة . فينحر ناقتة لإكرام ذلك الأشعث . والجار . ولو قال : وإنى لنحار . لكان المعنى واضحا . وما كان البيت مختلا .

وأمثال هذه الأبيات كثيرة واستقصاؤها متعذر ولكن الرجوع الى الكتب المصنفة فيها متيسر .

وما زادت تعقيدات المتنبى عن تعقيدات كثيرة وقعت فى أشعار غيره . ولعل التعقيد فى بعض أبيات الفرزدق أشد . فأما ديوان أبى تمام فحافل بضروب التعقيد بنوعيها (اللفظى والمعنوى) ومن أنصف لم ينازع فى الحقائق .

الغلو :

الغلو نوع من المبالغة يكون الوصف المدعى فيه غير ممكن عقلا ولا عادة . وغالبا ما يكون من المحال الفاسد . كقول ابى نواس:

وأخفت اهل الشرك حتى إنه ∴ لتخافك النطف التى لم تخلق

والتبليغ نوع آخر يكون فيه الوصف المدعى ممكنا فـــى العـــادة وفى العقل كقول امرئ القيس :

فعادى عداءً بين ثور ونعجة ∴ دراكا فلم ينضج بمـــاء فيغســـل

والاغراق هو النوع الثالث ويكون فيه الوصف المـــدعى ممكنـــا عقلا لا عادة .

كقول عمرو التغلبى :

ونكرم جارنـــا مـــا دام فينـــا ∴ ونتبعة الكـــرام حيـــث مـــالا[١]

فاتباع الجار بالكرم حيثما ذهب ممكن فى العقل ولكنه لم يقع فى عادات الناس .

والمبالغة مذهب يعم المحدثين . وموجود بكثرة أيضا فى كـــلام الأوائل . والناس مختلفون إزاء المبالغة فبعضهم يستحسنها ويقبلهـــا . وبعضهم يستقبحها ويردها . ويرى أن الشاعر لـــه حـــدود فـــى أداء المعانى يجب ان يقف عندها . ليجمع بين القصد والاستيفاء . ويســـلم من النقص والاعتداء . والإفراط فى الشئ قد يوقع الشاعر أو غيـــره فى المستحيل . ولقد ادعى بعضهم سروره بـــالنحول وذواب جســـمه لتستطيع الرياح حمله وإلقاءه فى دار الأحبه وكأنه هشيم تزروه الرياح وهذه دعابة ومجون . والبيت نوع من الغلو .

يقول :

أُسَرُّ اذا نَحلْتَ وذاب جســـمى ∴ لعل الريح تَسْـفِى بـــى اليـــه .

وجاء الغلو فى شعر المتنبى حينما ادعى أنه من النحول بحيـــث لو القى فى شق رأس القلم لما غير خط الكاتب . يقول :

---

(١) بغية الإيضاح للشيخ عبد المتعال الصعيدى ج ٤ ص ٤٧ : ٥٠ .

ولو قلم القيت فى شق رأسه ∴ من الغم ما غيرت من خط كاتب.

ومرة أخرى يدعى أنه يعرف بصوته لأن جسمه دقيق للغاية لاتراه العيون

يقول :

كفى بجسمي نحولا أننى رجل ∴ لولا مخاطبتى إياك لم ترنى

وقبله قال عنترة :

وأنا المنية فى المواطن كلها ∴ والطعن منى سابق الآجال

وهذا غلو بين. فكيف يشبه نفسه بالموت وكيف يسبق الموت طعناتة إن الطعنات هى السابقة

وقال نابغة بنى جعنة :

بلغنا السماء مجدونا وجدودنا ∴ وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

ولذلك قال له النبى صلى الله عليه وسلم (وما المظهر فوق ذلك ياأبا ليلى ؟) فاجأب الجنة بك يا رسول الله . فدعا له بالخير .

وقال نابغة بنى ذبيانى :

تقد السلوقى المضاعف نسجُه ∴ وتوقد بالصُّفَّاح نار الحُباحب

والسلوقى الدرع المنسوبة الى سلوق باليمن . والصفاح حجر عريض. ونار الحباحب شررها الحادث من تصادم الحجارة .

وقال مهلهل :

ولولا الريح أَسْمَعَ من بحجر ∴ صليل البيض تُقْرَعُ بالذُّكورِ

وحجر قصبة اليمامة أو هى ثمود بطريق الشام أو قريبا منها والرجل فى وسط الجزيرة العربية . وقوله كذب محض فهو غلو ولهذا قيل هذا كذب بيت قالته العرب .

وبالغ الأعور الشنى فى وصف جود ممدوحه فادعى أنه لوحل بصحراء الدهناء المجدبة لأصبحت بحرا جاريا

يقول :

ولو حل بالدهناء حرث بن جابر ∴ لأصبح بحرا بالمفازة جاريا

ومن واضح الكذب غلو ابن ميادة فى قيس عيلان بأنها لو أقسمت على الشمس لما طلعت .

يقول :

لو أن قيسا قيس عيْلَان أقسمت ∴ على الشمس لم تطلع عليها حجابها

وبالغ الطرماح فى هجاء بنى تميم باللؤم والجبن فهى أهدى فى اللؤم من الخطا ولا طريق لها نحو المكارم وهى تولى الأدبار من جيوش البراغيث .

يقول:

تميم بطرق اللؤم أهدى من القطا ∴ ولو سلكت يوما سبل المكارم ضلت
ولو أن برغوثا على ظهر قملة ∴ يكر على صفى تميم لولت

وقال العينى فى جوابه :

ولو أن عصفورا يمد جناحه ∴ على طئ فى دارها لاستقلت

يدعى أن طيئا من الجن بحيث لو مد عصفورا عليها جناحه وهى فى دارها لأصابها الهلع ورحلت .

وبالغ طريح فى جود ممدوح . بحيث لو يقول للسيل وعليه موجه كالهضاب توقف فأنا أنفع الناس أكثر منك إذا لارتد السيل أوْساخَ فى الأرض يقول :

لوقلت للسيل دع طريقك والمو ∴ ج عليه كالهضب يعتلج

لارتدَّ أو ســـاخ أو كـــان لـــه ∴ فى سائر الأرض عنك منعـــرج

هذا وقد أكثر اللاحقون من الغلو المـــذموم . فتجـــاوزوا غايـــة الأوائل فاجتذبهم الإفراط الى النقص وعدل بهم الإسراف نحو الذم .

وداعى الشعراء الى الغلو المبالغة فى الشكوى أو فى المـــديح أو فى الهجاء أو فى الوصف . أو فى الشوق وما شاكل تلـــك الصـــفات والاعتدال .فى كل شئ أفضل !!

القاضى يدافع عن المتنبى : يبذل القاضى الجرجانى رحمه الله تعالى غاية جهده فى الزيد عن المتنبى و إعلام الناس أن ما جـــاء فى شعره من الغلو لا يزيد عما جاء به فى كلام سابقيه . فقبله قال أبو تمام :

أفىَّ تنظم قول الزور والْفَنَـــدِ ∴ وأنت أنْزَر من لا شىء فى العدد

فأجاز أن يكون مهجوه لا شىء . وجعله معدودا . فكيف يحظر على المتنبى أن يجعل لا شئ مرئيا . فى قوله :

وضاقت الأرض حتى كان هاربُهُمْ ∴ إذا رأى غير شىء ظنه رجـــلا

ولما رأى المتنبى مهلهلا قد ادعى أنه لولا الريح أســـمع مـــن بحجر صليل البيض تقرع بالذكور وهو بالذنائب . وبينهما عـــرض نجد أقدم على أن قال :

سَلَّهُ الركب بعد وَهْـــنٍ بنجـــد ∴ فتصدَّى للغيـــث أهـــلُ الحجـــاز

و بين الحجاز ونجد مئات الاميال .

إن خط المتنبى من المبالغة خط غيره مـــن النـــاس . وأكثـــر مبالغاته مقبول لأنه أخرجها فى صورة يقبلها الذوق السليم

الاستعارة بين القبول و الرد :

يقول صاحب الوساطة : الاستعارة أحد أعمدة الكلام وعليها المعول فى التوسع والتصرف وبها يتوصل الى تحسين النظم شعرا ونثرا . والشعراء فيها إما مفرط وإما مقتصد و لكن أبا تمام مال به الإفراط إلى الإحالة. وأخرجه الى التعدى. ومن المؤسف أنه قد شايعه الكثيرون. فوقفوا عند مراتبهم من الإساءة والإحسان. والتقصير والإصابة – و الجيد والردىء من الاستعارة يميز بقبول النفس أو نفورها . وينتقد بسكون القلب أو نبوه [١] وبهذا يكون من الاستعارة الصواب والخطأ . و قد قيل عن المتنبى إن بعض استعاراته ردىء كقوله :

مسرة فى قلوب الطيب مفْرِقُها ∴ وَحَسْرَةُ فى قلوب البيض واليلب

وقوله :

تجمعت فى فؤاده همم ∴ مِلْءُ فؤاد الزمان إحداها

فقد جعل لكل من الطيب والبيض و اليلب قلوبا وللزمان فؤادا وهذه الاستعارات لم تجرعلى جامع قريب ولا بعيد. وإنما تصح الاستعارة على جامع مناسب وطرف من الشبه والمقاربه . فهذا ابن أحمر يقول :

ولَهَتْ عليه كل مُعْصِفَةٍ ∴ هوجاء ليس لِلبُهّا زَبْرُ

والزبر هو الرأى والقوة فقد جعل للريح لباً . والمتنبى جعل للطيب والبيض قلبا . فلا فرق بينهما . والكميت جعل للدهر ظهرا

---

(١) الوساطة ص ٤٢٩ .

وقلبا فقال :

ولما رأيت الدهر يقلب ظهره ∴ على بطنه فعل الممعك بالرَّمْل

وشاتم الدهر يجعل للدهر ظهرًا أجب . ومعرفة حصاء . ولونا أجدع ذا عنانين . وجبهة قرد كالنعل . وخدين مصعرين . وأنفا مجدعاً . وهذا كله تكلف بغيض . واستعارات بالغة القبح يقول :

ولما رأيت الدهر وعراً سبيله ∴ وأبدى لنا ظهرا أجب مسمعا
ومعرفة حصاء غير مفاضة ∴ عليه ولونا ذا عثانين أجدعا
وجبهة قرد كالشراك ضئيلة ∴ وصعَّر خديه وأنفا مجَدَّعا

فهولاء المتكلفون جعلوا الدهر شخصا تام الجوارح . وعلى نهجهم جعل المتنبى له فؤادا والكل بغيض غير مقبول والنظم الجيد يستريح القلب إليه والعكس بالعكس سئل الشافعى عن مسألة فقال :

إنى أجد بيانها فى قلبى ∴ ولكن ليس ينطق به لسانى

إنه ليس للطيب والبيض واليلب ما يشبه القلب . ولا ما يجرى مع هذه الاستعارة فى طريق [١] .

وأبيات شاتم الدهر صدرت مصدر الهزل . و قد قيلت فى زمان اعتمد الشعراء فيه على شتم الزمان وابتذلوا اسم الدهر واعتادوا شتمه فأعطوه أوصاف الإنسان المسىء و جعلت له أعضاء تعد وتوصف وتستهجن. ومثل هذه الأوصاف قول امرىء القيس فى وصف الليل :

فقلت له لما تمطى بصلبه ∴ وأردف أعجازا ونآء بكلكل

فجعل لليل عجزا و كلكلا وصلبا . وكل هذه الألفاظ مقبولة وغير مستكره وظاهرة المشابهة

---

(١) الوساطة ص ٤٣١ .

وكانت مألوفة فى زمانهم ومكانهم فاذا قال أبو الطيب :

مسرة فى قلوب الطيب مفرقها .....

فإنه يريد أن مباشرة مفرقها شرف. ومجاورته زين ومفخرة وأن التحاسد يقع فيه. فلو كان الطيب ذا قلب لأسف. وإذا جعل للزمان فؤادا . ملائته هذه الهمة . ثم أراد إن إحدى همم الممدوح تملأ الزمان. ومهما دافع صاحب الوساطة عن المتنبى. فإنها مبالغة سخيفة وإذا قال أبو تمام : (يا دهر قدم من أخدعيك) يريد إعدل ولا تجُره لأن عاده معاصريه أن يقولوا : جار الزمان ومال. وتعسف وظلم . وخرق وعنف فنهج نهجهم !!!

لأن الانحراف فى الانسان يقع بانحراف الأخدع وهو عرق فى العنق وازورار المنكب . ولكن هذه الأمور إذا طلب فيها التحقيق أخرجت الشعر عن طريقه وأدت الى فساد اللغة واختلاط الكلام والقصد فيها التوسط ولايحسن الإتيان بهذه الاستعارات القبيحة ولا يحسن تقليد مقابح الآخرين !

مآخذ ودفاع عن المتنبى :

يرى صاحب الوساطة أن مآخذ النقاد على أبى الطيب كثيرة ولكنها مع هذه الكثرة فإن حسناته أكثر [١] . [٢] . وهو معذور فى هذه المآخذ لأنه نهج فيها نهج السابقين .

ثم يقول :

فأما ما وقع الطعن عليه من جهة الإعراب واللكنة والذلل فى

---

(١) الوساطة ص ٤٣١ .

(٢) الوساطة ص ٤٣٤ .

اللغة وما الحق بذلك من النقص فيجب تعديده . و إنما أذكر ما انتهى الىَّ منه سماعا وبلاغا وما وقفت عليه كشفا واستقراء غير أنى لا أتجاوز ما يقع الاعترض عليه من أهل العلم . ويقول :

ولو بنيت كل ما يشكل على الشادى والمتوسط. وعلى الطبقة الأولى من أهل الأدب لاحتجت الى تفسير الديوان بأسره. فإن اقتصرت فعلى معظمه وأكثره .

ويقسم القاضى المعترضين على أبى الطيب الى قسمين : أحدهما نحوى لغوى ، لا بصر له بالشعر وصناعته. فهو يتعرض من انتقاد المعانى لما يدل على نقصه ويكشف عن استحكام جهله فقد أنكر بعضهم قوله :

تخط فيها العوالى ليس تنفذها ∴ كأن كل سِنَان فوقها قلم

والمعنى أن الرماح تأثر فيها ولا تنفذها حتى كأنها قلم على ورق ورغم أنه أخطأ فى وصف درع عدوه بالحصانة. وأسنة أصحابه بالكلال. وهذا النوع من الناس مناظرته فى تصحيح المعانى. عناء لا يجدى وتعب لا ينفع . كأنه لم يسمع ما شحنت به العرب كلامها من وصف ركض المهزوم .

وقولهم أن الذى نجى فلان كرم فرسه والذى ثبطنى عنه سرعة طرفه والممدوح عند شجعائهم مواجهة أندادهم وترك التحصن فى الحرب وفى هذا يقول الأعشى :

وإذا تكون كتيبة ملمومة ∴ خرساء يخشى الدارعون نزالها
كنت المقدَّمَ غير لابس جنةٍ ∴ بالسيف تضرب معلما أبطالها

و لما أنشد كثير عبد الملك قوله :

على ابن أبى العاصى دِلاَصٌ حصينةٌ ∴ أجاد المسدِّى سردها وأزالها

قال له عبد الملك : وصفتنى بالجبن ، هلا قلت كما قال الأعشى: وذكر البيتين فقال كثيرا : وصفتك بالحزم . ووصفه بالخرق وقال الأصمعى : (كل من قدر عليه شيء أصابه)

وفرسان العرب لايحفلون بسبوغ الدروع وحصانتها . وقال سالمة بن الخرشب يذكر هروب عامر بن طفيل ونجاته بسرعة فرسه :

نجوتَ بنصل السيف لا غمد فوقه ∴ **وسرج على ظهر الرحالة فاتر**
فَأَثْنِ عليها بالذى هى أهله ∴ ولا تكفرنها لا فلاح لكافر
فلو أنها تجرى على الأرض أُدرِكَتْ ∴ **ولكنها تهفو بتمثال طائر**

وللعرب فى هذا شعر كثير ، يكاد يفوق الجمع وقال شريح بن قرواش الضبى فى معنى أبى الطيب بعينه:

عشية نزلت الفوارس عنده ∴ وزل سنانى عن شريح بن مهر
وأقسم لولا درعه لتركته ∴ عليه عواف من ضباع وأنسر

وللعرب فى وصف السلاح والخيل مذهبان : أحدهما أن يصف الشاعر خيل قومه وسلاح عشيرته . يريد بذلك أننا أهل حروب وإذا وصف بذلك عدوه. فإنه يطلب بذلك الغض من شأنه والنعى عليه ولا يفعل ذلك إلا وقد دعا عدوه الى البراز فلم يجبه أو أجابه فلم يثبت له. فإذا وصف سلاحه فكأنه يقول له : لقد هربت وأنت شاكى السلاح تام العدة . فهو أثلم لعرضك وأدل على عجزك وإذا وصف فرسه فإنما يعتذر من بقائة بعد لقائه يريد أن الفرس نجته وأنقذته فهو طليقها وأسيرها ورقيقها . أما الرجل الثانى الذى يعيب المتنبى بعد النحوى واللغوى فهو معنوى مدقق لا علم له بالإعراب ولا

اتساع له فى اللغة فهو ينكر الشىء الظاهر كنقد بعضهم للبيت .

أبعد بَعُدْت بياضا لابياض له ∴ لأنت أسود فى عينى من الظلم

حيث أنكر كونه أسود من الظلم . مع أن البيت يحتمل وجوها يصح عليها . ولم يرد أفعل التفضيل التى للمبالغة .

يقول صاحب الوساطة رحمه الله تعالى :

وهذا الاعتراض يدل على تقصير شديد فى العلم بكلام العرب. لأن العرب إذا وصفت الشىء بصفة غيره استعارت له الفاظه . وأجرته فى العبارة مجراه ألا ترى قوله تعالى : ﴿ **والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين** ﴾ .

لما وصفها بالسجود جمعها بالياء والنون . ولا يجمع بها إلا جنس من يعقل . وحكى الله تعالى عن السموات و الأرض : ﴿ **قالتا أتينا طائعين**﴾ لما حكى النطق و الطاعة و الائتمار . أجرى الكلام على ذلك . فقال : ﴿ **فقضاهن** ﴾ . وعلى هذا قوله تعالى : ﴿ **وكل فى فلك يسبحون**﴾ وهو كثير . ولو عرجنا على كل معترض . لا متد بنا القول ولاعجزنا كثرة الخصم عن امتحان الشهادات ونحن نصون كتابنا عن سخيق الاعتراض . كما نصونه عن ضعيف الانفصال .

الفصاحة المفقودة فى أبيات المتنبى :

أنكر عليه العلماء أن يحذف نون يكون بغير موجب للحذف إلا ضرورة الشعر وهو عذر غير مقبول فى قوله مثلا :

جُلَلاً كما بى فليك التبريح ∴ أغذاء ذا الرشا الأغن الشيح

(ونون يكن هنا ساكنة وتحرك بالكسر للتخلص من التقاء

الساكنين . وهى لا تحذف الا اذا سكنت وحذفها للتخفيف وأجاب المحتجون عن أبى الطيب : بأن ضرورة الشعر تجيز حذف النون مع الألف واللام.

وقال حُسَيل بن عَرْفُطة :

لم يكُ الحق سوى أن هاجه ∴ رسمُ دار قد تعفى بالسُّرر
غَيَّرَ الجدةَ عن عرفانها ∴ خرق الريح وطوفان المطر
فلست بآتية ولا أستطيعه ∴ ولاك اسقنى إن كان ماؤك ذا فضل

فحذف نون لكن مخالف للقياس اللغوى فى مثل هذه الأبيات ومن ثم فلا يعد ذلك من الفصاحة .

وعيب قول المتنبى :

أمط عنك تشبيهى بما وكأنه ∴ فلا أحد فوقى ولا أحد مثلى

فقيل : إن ما ليست من أدوات التشبيه . ولكن المتنبى أجاب بأنها تأتى لتحقيق التشبيه [١] واستشهد بقول الآخر :

وما هند إلا مهره عربيةٌ ∴ سليلة أفراس تجللها بَغْل

وقال لبيد :

وما المرء الا كالشهاب وضوئة ∴ يحور رمادا بعد إذ هو ساطع

ولكن الصواب أن الأمر ليس كما زعم المتنبى . ذلك لأن التشبية هو (هند مهرة) وأداة التشبية محذوفة أما ما وإلا فهما طريق من طرق القصر (النفى والاستثناء) والقصر إيجاز وتوكيد للمعنى . أما أن تكون ما للتشبية فهذا غير صحيح .

وأنكروا عليه قوله :

---

(١) الوساطة ص ٤٤٣ .

إذا كان بعض الناس سيفا لدولة ∴ ففى الناس بوقات لها وطبول

لأن بوقا تجمع على أبواق كعود وأعود . وقفل وأقفال . وإنما يجمع على فعلات ما كان مفرده فعلة . كركبة وركبات وفيها ثلاثة أوجه . فتح الكاف وضمها وتسكينها . أما المتنبى فقد قاسه على خان وخانات ومساباط وساباطات .

كما قالوا فى جمع ابن آوى : بنات آوى . وكذلك بنات عرس . وقالوا فى جمع رمضان وشوال رمضانات وشوالات .

والقياس مع الفارق . وجمع بوق على بوقات غير فصيح .

وعيب قوله :

وإنى لمن قوم كان نفوسنا ∴ بها ألف أن تسكن اللحم والعظما

وقيل :

كان الأولى به أن يقول كأن نفوسهم وقيل : هذا من شنيع ما وجد فى شعره . وليس الأمر كما قالوا . لأن هذا يعد من قبيل الالتفات من الغيبة الى التكلم . وقد جاء الالتفات فى الشعر العربى كثيرا .

يقول أبو النجم :

ياأيها الذى قد سؤتنى ∴ وفضحتنى وأكلت مال عيالیا

ولو جاء يغير التفات لقال : ياأيها الذى قد ساءنى ..... .

وقال لبيد :

فبنى لنا بيتا رفيعا سَمْكُه ∴ فسما اليه كَهْلُهَا وغلامُهَا

يريد كهلنا وغلامنا . وقالوا : ومن الالتفات قوله تعالى : ﴿**حتى اذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة**﴾ .

عدل فى الآية عن ضمير المخاطب إلى ضمير الغائب . لظهور المعنى .

وأنشدوا لعبد الله بن قيس الرقيات :

فتاتان أما منهما فشبيهة ∴ هلالا وأخرى تشبه الشمسا
فتاتان بالنجم السعيد ولدتما ∴ ولم تلقيا يوما هوانا ولا نحسا

فلم يقل فتاتان ولدتا . فعدل عن الغيبة الى الخطاب . وعلى الرغم من أن الالتفات مبحث بلاغى شهر فيما بعد .

فقد قال القاضى الجرجانى : لو قال المتنبى : (كأن نفوسهم بها أنف ..... الخ) لازال الشبهة ودفع القاله . وأسقط عنه الشغب . وعناء التعب .

وأنكروا على المتنبى تثنية الرماح فى قوله :

مضى بعد ما التف الرماحان ساعة ∴ كما يتلقى الهدب فى الرقدة الهدبا

فحاجهم ببيت أبى النجم :

تنقّلْت من أول التنقل ∴ بين رماحى مالك ونهشل .

وعابوا تشديد النون من لدن فى قولة :

فأرحام شعر يتصلن لدنّه ∴ وأرحام مالٍ ماتنى تتقطع

والقياس لدن ولدن . فأصلحة بقوله : يتصلن ببابه .

هذا ويحاول القاضى الجرجانى أن يدافع عن المتنبى فى كل ما وقع فيه من أخطاء . (وكما قيل حبك الشئ يعمى ويصم)

فإنه يغض طرفه كثيرا عن أخطائه . ويحاول أن يوجد لها نظائر فى كلام العرب . وأيا ما كان كلام القاضى فإن اللحن لحن وإن التعقيد تعقيد لا يحمد بحال من الأحوال . لقد حاول القاضى أن يمثل

بأبيات لغير المتنبى فيها حذف أو زيادة على غير أساس لغوى . كحذف نون لكن كما سبق وزيادة ياء فى صيارف فى قول الشاعر يصف ناقتة .

تنفى يداها الحصى فى كل هاجرة ∴ نفى الدراهيم تنقاد الصياريف

والقياس : الدراهم . والصيارف . ويضرب أمثلة لتغيير بعض الصيغ . وكأن الخطأ إذا سمع صح القياس عليه . وليس الأمر كذلك . وقد أحتج بقول الفرزدق :

وما فارقتها شبعا ولكن ∴ رأيت الدهر يأخذ ما يعار

ويحاول القاضى أن يصحح وقوع الضمير متصلا بعد إلا وهو غير فصيح . يقول المتنبى :

ليس إلاك يا علىٌّ هُمَامُ ∴ سيفه دون عرضة مسلول

وقوله :

لا لسوى ودك لى ذاكا ∴ لم ترى من نادمت إلا كا

والقياس فى البيتين إلا أنت . أوليس إلا إياك [1] قال تعالى : ﴿ **ضل من تدعون إلا إياه** ﴾

وقد روى الفراء بيتا عن العرب واحتج به أبو الطيب وهو :

فما نبالى اذا ما كنت جارتنا ∴ ألا يجاورنا إلاَّكِ ديار

ويصرح القاضى بتصويب خطأ المتنبى فيقول : وأنا أرى إلا يطالب الشاعر أكثر من إسناد قوله الى شعر عربى فقوله عن ثقة وناهيك بالفراء.

وعلى هذا النحو يصوب قول المتنبى :

---

(١) الوساطة ص ٤٥٧ .

أحَاد أم سُـدَاسٌ فـى أحـاد ∴ ليلتنـا المنوطـة بالتنـادى

ويرد قول النقاد بأن العرب لم يقولوا أكثر مـن مثنـى وثـلاث ورباع . وهذا يوقف فيه على السماع .

ويرى القاضى أنه سمع عنهم أنهم أوصلوا الى عُشَار ويـروى فى هذا بيتا للكميت :

فلم يستر بثوك حتى رَمَيْـ ∴ ت فوق الرجال خصالا عُشَـارَا

وقول آخر :

ضربت خُمَاس ضربة عبشمى ∴ أراد سُـدَاس أن لا يسـتقيما

ويقول : وقد نسبت العرب الى كل ذلك فقالوا : خُمَاسِىٌّ وَسُدَاسِىٌّ وَعُشَارِىٌّ قال أبو النجم :

فوق الخُماسى قليلا تُفَضِّلة .....

وقال المتنبى أن قصده من التناد مصدر تنادى القوم . لا يوم القيامة.

أما تصغير الليلة فقد أجاب عنه المتنبى نفسه أيضا. بأنه تصغير للتعظيم والعرب تفعلة كثيرا واستشهد بقول لبيد :

وكل أناس سوف تدخل بينهم ∴ دُوَيْهِيَةٌ تَصْـفَرُّ منهـا الأنامـل

وقد صغرها للطف مدخلها وإلا فهى والعياذ بالله تعالى داهية شنيعة.

وقال الحباب بن المنذر الانصارى رضى الله عنه : أنا عُـذَيقها المرجَّبُ وَجُذَيْلها المحكَّك . فصغر وهو يريـد التعظـيم . والعُـذَيْقُ تصغير عَزق بفتح العين . وهى النخلة والمرجب من الترجيب وهـو أرفاد النخلة من جانب ليمنعها من السـقوط . والمـراد لـه عشـيرة تنصره. والجذل عود تحتك به الإبل الجربى فتشفى . والمراد أن رأيه يشتفى به . كما تشتفى الإبل بالجزل .

وقال الآخر :

يا سَلْمُ اسْقَاكَ البُرَيْقُ الــوامض ∴ والـــديم الغَادِيـــةُ الفَضَـــافِضُ

ذلك لأن تصغير اللفظ على تكثير المعنى غير منكر وهو كثيــر فى كلام العرب .

وقد عيب أبو الطيب بذكره ألفاظا ليست من كلام العرب كلفــظ مخشلب فى قوله :

بياضُ وجه يريك الشمس حالكةً ∴ وَدُرٌّ لفظ يريك الــدُّرَّ مُخَشْــلِبَا .

وزعم المتنبى أنها عربيه وأنه ذكرها العجاج . وكذبه صــاحب الوساطة . ولكنه دافع عنه بأن العرب تستعمل بعض كلمات الأعــاجم اذا احتاجت اليها لإقامة الوزن . وإتمام القافية . كما قال التغلبى :

وكنا إذا القَيسِىُّ نبَّ عَتُــودُه ∴ ضربناه دُون الأنثين على الكَرْدِ

أراد الكرْدَنْ . وهو العنق . فأقام به القافيه وهى فارسية .

وقال الآخر :

وقد علمت فارس حمير والأعــ ∴ رابُ بالدَّشْــتِ أيُّهُــمْ نـــزلا

والدشت كلمة فارسية بمعنى الصحراء . وشواهده كثيرة . يقول القاضى . فليس بمحظوره على الشاعر أن يقتدى بهم فى أمثال ذلــك إذا احتاج اليه . فإن كانت الكلمة عربية . فقد زالت الكلفة . وإلا فمــا روى عن العرب والمحدثين من أمثالها يعتذر عنه .

وعيب أيضا قوله :

ليس التعلل بالآمال من شيمى اربــى ∴ ولا القُنُوعُ بضنك العيش من شــيمى

قالوا القنوع خطأ وإنما هى القناعة . فأما القنوع فالمسألة . يقال قَنَعَ يَقْنَع قَنَاعَةً إذا رضى وقنع يقنع قنوعا إذا سأل والفاعل فيهما قانع.

وقال صاحب الو ساطة :

القنوع بمعنى القناعة محكية عن العرب وإن لم تكن مشـــهورة وحكوا عن أوس بن الحارث الطائى أنه قال فى وصية ولده :

خير الغنى القنوع وشر الفقر الخضوع : وعيب قوله

بيضاء يمنعها الـــتكلم دلَّهـــا ∴ تيها ويمنعها الحيـــاء تميســـا

فنصب تميس مع حذف أن الناصبة وهو عند النحويين ضعيف، وقد أجازه الكوفيون محتجين بقول طرفة :

إلا أيهذا اللائمى أحضر الوغى ∴ وأن اشهد اللذات هل أنت مخلدى

ونصب المضارع مع حذف أن بهذه الصورة غيـــر فصـــيح . والبصريون يروون قول طرفة بالرفع

وعيب وصفه الماء باليبس فى قوله :

حوابس حَلَّ يابس الماء حُزْمَهَـــا ∴ فَهُنَّ على أَوْسَـــاطِهَا كالمنـــاطق

والصواب جمد الماء وجمس السَّمْنُ ويبس العود والنبت ونحـــو ذلك [١].

و قيل : قد جاء عن العرب وصف الماء باليبس قال بشر يصف خيلا :

تراها من يبيس الماء شـــهبا ∴ مُخَـــالِطُ درةٍ فيهـــا غـــرار

والغرار انقطاع الدرة .. يريد تعطى أحيانا و تمنع أحيانا وإنما قال : شهبا لأن العرق يجف عليها فتبيض .

وقد استعار الجموس فى الماء ذو الرمة فقال :

ونقرى سديف اللحم و الماء جامس .

---

(١) الوساطة ص ٤٦٦ .

مبالغات خسيسة

من المبالغات الخسيسة التي تجئ في الشعر ويعف اللسان عن شرحها أو التعليق عليها و التي لا تصدر من مسلم صادق الإيمان أبدا قول أبي تمام :

يقول فيسمع و يمشي فيسرع ∴ ويضرب في ذات الاله فيوجع

وأخف منه ما عيب به المتنبي في وصفه بدر بن عمار بأن فيه الثواب والعقاب يقول :

إنما بدر بن عمار سحابٌ ∴ هطل فيه ثواب وعقاب

و قد أخرج فيه الرمل علي فاعلاتن في العروض وأجري علي ذلك جميع أبيات القصيدة ومن المبالغات السخيفة و الخسيسة قوله :

ولعلي مُؤَمّلٌ بعض ما أبلـ ∴ لغ باللطف من عزيز حميد

قالوا : تمني أن يؤمل بعض ما يبلغ وهذا لا يليق والصواب أن يقول لعلي بالغ بعض ما أؤمل والشعراء عندنا يتركون هذه المعاني عندما يقدمون الدليل للناس علي أن الشيطان قد باض في آذانهم .

القلب :

جاء القلب فى الشعر كثيرا كقول الأعشى :

وكل كميت كأن السليـ ∴ ط حيث وارى الأديم الشعارا

يريد حيث وارى الشعار الأديم . فقلب الكلام .

وكقول الأخطل :

مثل القنافذ هَدَّاجون قد بلغت ∴ نجران إن بلغت سوآتهم هجر[1]

يقصد بلغت سوءاتهم هجر. وقال الشماخ :

---

(١) الوساطة للقاضى الجرجانى ص ٤٦٩ .

منه ولدت ولم يُؤْشَبْ به حسبى ∴ ليًّا كما عُصِبَ العلباء بالعود

أراد كما عصب العود بالعلباء وقال آخر :

أسلمته فى دمشق كما ∴ أسلمت وحشية و هقا

أراد كما أسلم وهق وحشية . وقال أخر :

..... ∴ كان الزناء فريضة الرجم

أراد كان الرجم فريضة الزنا ومثل هذا كثير .

يقول المتنبى :

وَعَذَلْتُ اهل العشق حتى ذقته ∴ فعجبتُ كيف يموت من لا يعشق

أراد كيف لا يموت من يعشق ؟

و قيل أن بيت المتنبى لا قلب فيه . لأن معناه : كيف تكون المنية غير العشق . كأنه يقول : كيف يجوز ألا تعم علته فتستولى على الناس حتى تكون مناياهم منه . هذا و أن كان مقصود المتنبى و لكن بيته جاء على أسلوب القلب .

فى التشبيه :

يقول المتنبى :

بليت بلى الاطلال إن لم أقف بها ∴ وقوف شحيح ضاع فى الترب خاتمه

أراد التناهى فى أطالة الوقوف فبالغ فى تقصيره . وكم عسى هذا أن يقف ؟ بالغا من الشح ما بلغ !!

والخاتم أيضا ممالا يخفى فى التراب إذا طلب .

ولعل الصواب فى هذا أن التسبيه و التمثيل قد يقع تارة بالصورة والصفة و أخرى بالحال و الطريقة .

فإذا قال الشاعر و هو يقصد أطالة وقوفه :

إنى أقف و قوف شجيغ ضاع خاتمه . أم يـرد التسـوية بـين الوقوفين فى القدر والزمان والصورة . وإنما يريد لأقفن وقوفا زائدا على القدر المعتاد كما أن وقوف الشحيح زائد على ما يعرف فى أمثاله .

و قال المتنبى أيضا :

كـأنه مـن علمـه بالمقتـل ∴ عَلَّـمَ بقـراط فصـاد الأكحـل

قالوا لم يكن بقراط فصادا . ولا كان الفصد غالبا فى زمانـه . وإنما كثر بعده وأيا ما كان الأمر فإن بقراط اليونانى يضـرب بـه المثل فى الطب وهو يقينا لا يجهل الفصاد .

ومن ذلك تشبيه كافور الشمس منيرة سوداء فى قوله :

بفضح الشمس كلما زرت الشمس ∴ بشـمس منيـرة سـوداء

فالشمس لا تكون سوداء ، والإنارة ضد السواد . فقـد تنـاقض الشاعر فى معانيه وقيل إن المتنبى أراد الشهرة ونباهة الشأن. أو فى النفع والرفعة. وهو فى هذا لا مانع من كونه أسود .

ولا عجب فقد يكون الشخص منير الفعـال أسـود اللـون .... واضح الأخلاق كاسف اللون. غير أن فى اللفظ بشاعة لا تدفع وبعدا ظاهرا عن القبول و هجاء فى صور ة المديح !!

هذا وقيل أن من ضعف البصر بمواقع الكلام ومطابقة لمقتضى الحال تسليمه على النساء ، وحديثه عن أم سيف الدولة وهـى ميتـة وعن أخته أيضا كقوله :

وهل سمعت سلاما لى ألَمَّ بها ∴ فقد أطلت وما سلمت من كثـب

و قوله فى رثاء أم سيف الدولة :

بعيشك هل سلوتِ فإن قلبـى ∴ وإن جانبت أرضك غير سـالى

إن العاقل لا يقول هذا إلا فى رثاء أهله .

وقوله :

ما يقبض الموت نفسا من نفوسهم ∴ إلا وفى يده من نتنها عود

قالوا والعود لا يشم . إلا إذا حللت النار أجزاءه فانبث فى الهواء ودخل فى الخياشيم .

وقصد المتنبى أنه يتناول أرواحهم بالعود إستقذارا لها. فيصون عنها يده و لم يرد عود الطيب وإنما أراد عودا من العيدان أيا كانت .

ويشبه المتنبى وصول شعاع الشمس إلى أعشاش الطيور مستديرا كالدراهم فيقول :

إذا ضوؤها لاقى من الطير فرجةً ∴ تدور فوق البيض مثل الدراهم

وقد صححت المشاهدة هذا التشبيه .

وكقوله :

وضاقت الأرض حتى كاد هاربُهُم ∴ إذا رأى غير شىء ظنه رجلا

ومن الإستعارات البعيدة جعله للكتمان جسمًا فى قوله :

كأنه زاد حتى فاض من جسدى ∴ فصار سقمى به فى جسم كتمانى[1]

و يختم القاضى الجرجانى كتابه بقوله .... وقد أتينا على ما وصلت إليه الطاقة . فإذا زادنا النظر والفكر والمطالعة بعض ما يليق به أضفناه اليه . وإن أفادنا غيرنا ما قصر علمنا عنه إستفدناه وأعظمنا النعمة فيه وعرفنا لصاحبه فضل التقديم . ورجعنا له بحق التعليم . وبالله نستعين على كل خير . وإياه نسأل التوفيق ونستوهب العصمة والتسديد وهو حسبنا ونعم الو كيل .

---

(١) الوساطة للقاضى الجرجانى ص ٤٧٨ .